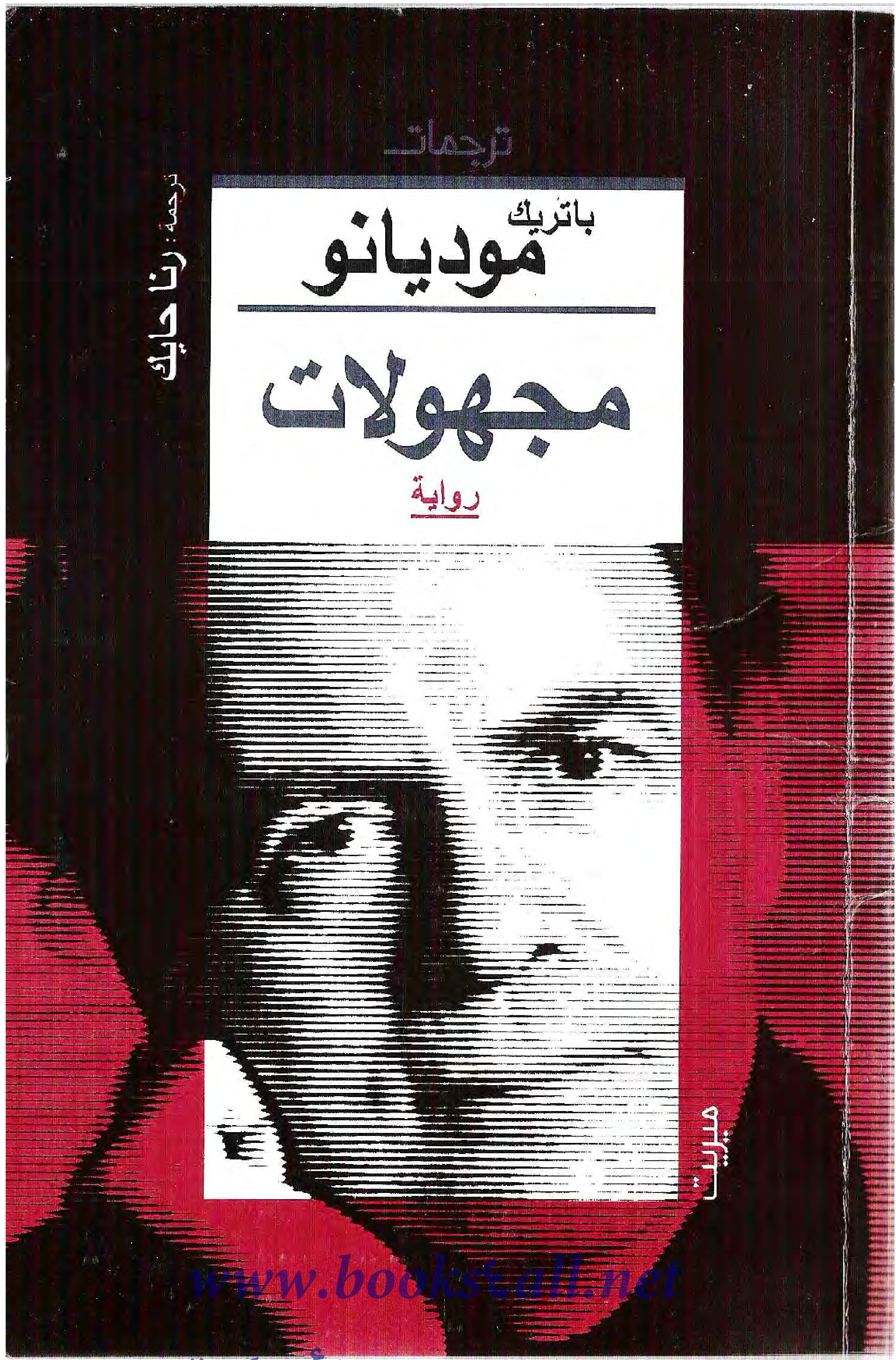

ترجمات
باتريك
موديانو
مجهولات
رواية
ترجمة : رنا حايك
ميريت
www.bookstall.net

مجهولات

مجهولات

رواية

باتريك موديانو

ترجمة: رنا حايك

الطبعة الأولى ٢٠٠٦ .

٦ (ب) شارع قصر النيل، القاهرة
تليفون / فاكس: ٥٧٩٧٧١٠ (٢٠٢)
www.darmerit.net
merit56@hotmail.com

الغلاف : أحمد اللباد

المدير العام : محمد هاشم

رقم الإيداع: ٢٠٠٦/١٧٤٥٤

الترقيم الدولي: 977-351-327-0

باتريك موديانو

ترجمة : رنـــــا حايـــــك

مجهولات

رواية

دار ميريت

القاهرة ٢٠٠٦

مقدمة المترجمة

هــن نساء من غير قصة حقيقية. مجهولات بالنسبة للآخرين وبالنســبة لأنفســهن أيضًــا، يحاولن جاهدات خلال عبورهن من مــرحلة الطفولــة إلـــى عالم الراشدين، الفرار من واقع ممل إلى مستقبل غير أكيد.

الثلاثة ضحايا أسر متفككة وعلاقات انسانية مبتورة، والثلاثة يفتشن عن معنى لحياتهن الخالية منها.

هؤلاء هن بطلات الروائي (باتريك موديانو)، الذي ولد عام ١٩٤٥ في فرنسا، في ظل حكومة فيشي التي خلقت الجو المناسب لتذكية إحساسه بهوية تائهة ورثها عن أبيه اليهودي.

هــو، قضـــى طفولــته، كمعظم أبطال رواياته، في ملاجيء وشــوارع ومحطــات أوتوبيس باريسية. هو، كمعظم شخصياته ذهب ضحية والدين دائميّ الترحال.

وهــو، مــثلهم تمامًــا، قضى حياته مسكونًا بهاجس الفقدان، يحاول لمّ أشلاء ماضيه وانتمائه من خلال كتابة مشاهد من حياته الخاصة وأسماء شوارع مرّ بها، وملاجيء سكن فيها، وشخصيات سكنته حدّ الألم.

باتريك موديانو ليس كاتبًا موغلاً في المحلية كما قد يبدو أول وهلـــة لقارئه. شخصياته وحبكاته ليست ابنة العالم الباريسي، بل هي ابنة عالمنا المعولم.

ضياع أبطاله ليس خاصًا بهم، بل هو ضياع الفرد بشكل عام في عصر يتفنن في الازدواجية والمكر وأكاذيب الأسطورة البطل، وأوهام الأحلام المنهارة، والقناعات الواهمة.

رحلـــة هـــؤلاء البطلات هي رحلة كل منّا، احباطاتهن هي إحباطاتــنا، تخوفهن من الآخر، انطوائهن وعزلتهن في هذا العالم المشـــغول بالمكائد والحروب، افتقارهن إلى علامات الإرشاد في ظل انهيار صورة الأب والمعلم والحاكم، إحساسهن بالدونية وهنّ مـــأخوذات تحت عجلة المدينة الصاخبة، توقهنّ إلى الوصول لكن إلى أين ؟

هكذا هن المجهولات، وهكذا هو كل منّا.

رنا حايك

القاهرة في ٢٠٠٤/٨/٤

- ١ -

حـــل الخـــريف باكرا عن موعده هذا العام، مصطحبا المطر والأوراق الميـــتة، والضباب الذي خيم على أرصفة الإبحار التي تحيط بنهر الساون.

كنت لا أزال أسكن عند أبويّ، في أسفل هضبة (فورفيير). وكان علي أن أجد عملا، كنت قد عينت في يناير لمدة ستة شهور كعاملة على الآلة الكاتبة في شركة (ريون و سواري) في ميدان (كروباكـــي) حيث استطعت ادخار بعضا من مدخولي، فسافرت لقضـــاء الإجـــازة في (توريمو لينوس) جنوب اسبانيا. كنت في الثامـــنة عشـــرة وأغـــادر فرنسا لأول مرة في حياتي. على شط (توريمـــو ليـــنوس) تعرفت على سيدة فرنسية تعيش هناك منذ ســـنوات طويلـــة مع زوجها، كان اسمها (ميراي ماكسيموف). ســـمراء جمـــيلة جدا، تدير وزوجها فندقا صغيرا حجزت لي فيه غرفة. فهمت منها أنها ستزور باريس لبعض الوقت في الخريف، وانهـــا ستقيم عند أصدقاء لها أعطتني عنوانهم. وعدتها بأن أذهب لملاقاتها في باريس لو سنحت لي الفرصة.

عـند عودتـي مـن الاجازة بدت لي (ليون) مظلمة. على مقـربة مـن منزلي، على اليمين، عند طلعة (سانت بارتيليمي) كـان يقـبع ملجـأ (اللازيريست). العمارات المبنية على سفح الهضـبة تسـيطر بواجهاتهـا الكئيبة على الشارع. البوابة كانت محفـورة فـي جدار كبير. بالنسبة لي، كانت (ليون) في شهر سـبتمبر هذا هي حائط (اللازاريست). حائط أسود تصله أحيانا أشعة شمس الخريف. وحينئذ، كان الملجأ يبدو مهجورا.

أمـا تحـت المطـر، فكـان يبدو كحائط سجن يحجز عني المستقبل.

علمـت من خلال إحدى زبائن الدكان الذي يمتلكه أبويّ، أن إحـدى دور الأزياء تفتش عن عارضات. يدفعون حسبما ذكرت ثمانمائـة فرنك في الشهر، أي أكثر بمئتي فرنك مما أحصل عليه في الشركة، أعطتني العنوان، وقررت أن أتقدم للوظيفة.

طلبت مني السيدة التي ردت على اتصالي أن أحضر للمقابلة بعد ظهر أحد أيام الأسبوع المقبل في ٤ شارع جروليبيه.

أقنعـت نفسـي في الأيام التالية بأنه عليّ أن أصبح عارضة ازياء، أنا التي لم يسبق لي أن فكرت بهذه المهنة من قبل، فهذا قد يتيح لي فرصة جيدة لمغادرة ليون والذهاب الى باريس.

كـان قلقي يزداد كلما اقترب موعد المقابلة. وكأن لعبة قمار توشك على تحديد مسار حياتي.

كنت أقول لنفسي أنني اذا عدلت عن التقدم الآن، قد لا تسنح لي فرصة ثانية كهذه.

هل لديّ فرصة ؟ ماذا أرتدي لاجتياز الامتحان ؟ لم يكن لديّ خيار ،

فالثياب الوحيدة التي أملكها وحالها جيدة كانت تنورة رمادية وقميص أبيض. اشتريت حذاءا كحليا كعبه منخفض. ارتديت الثياب عشية الموعد في غرفتي، ورأيتني هناك، واقفة، ثابتة أمام مرآة الخزانة، اتسائل ان كانت هذه الفتاة هي أنا فعلا، جعلني هذا ابتسم، لكن سرعان ما تخشبت ابتسامتي عندما خطر لي أنه في الغد سيتقرر مصير حياتي.

كنت أخشى أن أصل متأخرة على الموعد فغادرت منزلي مبكرة ساعة.

كانت تمطر في ميدان (بلكور). فاحتميت بباحة أوتيل (رويال)، لم أكن أريد أن أصل دار الأزياء مبتلة الشعر، صوّرت للحارس أنني إحدى زبائن الأوتيل، فأعطاني مظلة.

في ٤ شارع (جروليبه)، جعلوني انتظر في غرفة كبيرة، جدرانها مكسوة بالخشب الرمادي، ونوافذها محمية بستائر حريرية من نفس اللون، امتد صف من الكراسي على طول الحائط، كراسي من الخشب المذهب، مقاعدها منسوجة بقماش مخملي أحمر.

بعد نصف ساعة، قلت لنفسي أنهم نسوني، كنت جالسة على أحد الكراسي استمع لصوت هطول المطر في الخارج.

كانت الثريا في السقف، تشعّ ضوءًا ابيض. تسائلت ان كان يجب أن أنتظر أكثر. ثم دخل رجل خمسيني، ذو شعرقاتم ممشط

إلـــى الخلف ، لديه شارب صغير وعيون طائر الباشق، كان يلبس زيًّا ازرق، وحذاءًا داكنا من جلد الظبي.

أحيانا، في أحلامي، يدفع الباب ويدخل، بشعره الذي لا يزال أسودًا بعد مرور ثلاثين عامًا.

أشـــار لي بألا أنهض، وجلس إلى جانبي، سألني بنبرة جافة عن عمري، هل عملت من قبل كعارضة أزياء ؟

– كلا.

طلـــب مـــن أن أنزع حذائي، وأن أمشي حتى النافذة، ثم أن أعود اليه.

مشـــيت شاعرة بارتباك شديد. كان محنيا على كرسيه، يسند ذقنه بكفّ يده، ويبدو عليه الاهتمام.

بعـــد أن انتهيت، وقفت أمامه ولم ينبس بكلمة. ثبّت نظري – حـــتى اخفـــي اضـــطرابي – علـــى حذائي الكحلي المستقر تحت الكرسي الخالي.

– اجلسي.

جلســـت الى مكاني بجواره. لم أكن اعرف، ان كان علي أن اعيد ارتداء الحذاء.

– أهذا لونك الحقيقي ؟

سألني مشيرا إلى شعري.

– نعم.

أجبت.

– بروفيل، من فضلك.

أدرت وجهي نحو النافذة.

- لديـك بروفـيل جميل. (قالها وكأنه يعلن خبرا سيئا) من النادر أن تجدي بروفيلا جميلا.

كـان يـبدو حانقا لفكرة ندرة وجود البروفيلات الجميلة في العالم. وكان يتفحصني بعينيّ الباشق.

- مواصـفاتك تصلح جدا للتصوير، لكنها لا تطابق تلك التي يفتش عنها مسيو بيير.

تصـلبت في مكاني، ألم تعد لديّ فرصة ولو صغيرة ؟ ربما يـأخذ رأي المسـيو بيـير الـذي هو المدير بلا شك. عمّ يفتش بالضبط؟

كنت جاهزة للامتثال لكل ما قد يطلبه المسيو بيير.

- عفوًا، لا نستطيع توظيفك.

صدر الحكم. لم أمتلك القوة لقول أي شيء. أفهمتني نبرة هذا الرجل الجافة واللبقة أنني لست حتى جديرة باستدعاء المسيو بيير لأخـذ رأيه. لبست حذائي. وقفت. ودّعني بصمت. ورافقني حتى الباب وفتحه لي بنفسه لأخرج.

فـي الشـارع، اكتشفت أنني نسيت مظلتي، ولكنني لم أهتم. عـبرت الجسر. مشيت على رصيف الابحار بمحاذاة نهر الساون الـى أن وجـدت نفسي على مقربة من منزلي، عند طلعة سانت بارتيليميه، أمام حائط اللازاريست.

فـي مشـهد سيتكرر لاحقًا في أحلامي على مدى السنوات التالية، كان يصعب تمييزي عن هذا الحائط، غطّاني بظلّه فاتخذت

لونـــه، حيث لن ينتزعني أحد أبدًا من هذا الظل.في المقابل، كان صـــالون شـــارع جروليبيه، حيث جعلوني انتظر، يسبح في ضوء الثريا. ضوء ساطع. والرجل ذو الزي الأزرق والحذاء الجلدي لا يـــتوقف عـــن الخروج بظهره من باب الغرفة مرارًا. وكأنه في شـــريط ســـينمائي يعـــرض عكسيًا. دائمًا نفس الحلم. مع مرور الســـنوات أصبح حائط اللازاريست أقل ظلمة، وفي بعض الليالي كان يضيئه شعاع شمس تغيب.

في صالون شارع جروليبيه، أصبح ضوء الثريا أكثر نعومة، وبهـــت اللـــون الأزرق لزيٍ الرجل ذي عيني الباشق، كما شحب وجهـــه واستحال جلده شفافا، ماعدا شعره، فقد ظل أسودا. تهدج صـــوته، لم يعد هو المتكلم، بل كان صوت اسطوانة تدور. نفس الكلمـــات تتكرر للأبد : " لونك الحقيقي... بروفيل... أوصافك لا تطـــابق تلـــك التـــي يفتش عنها مسيو بيير ". إلى أن فقدت هذه الكلمات معناها.

يفاجئنـــي في كل مرة استيقظ فيها، احساس الخيبة الذي خلفته فـــي نفسي هذه المرحلة القديمة من حياتي، ليجعلني تعيسة. حتى أنني فكرت وأنا أعبر الجسر ذلك المساء، أن ألقي بنفسي في نهر الساون بسبب حادثة بسيطة كهذه.

لـــم يكـــن لـــدي الشجاعة الكافية لأعود الى المنزل، وأواجه أبويّ، ومرآة الخزانة في غرفتي.

نزلـــت الـــدرج المـــؤدي إلى الحي القديم من المدينة وكأنني أهرب، ووجدتني من جديد أمشي على الرصيف، بمحاذاة الساون.

دخلــت مقهـــى. كنت أحمل معي دائمًا قصاصة الورق التي كتبــت لــي علــيها (مـــيراي ماكسيموف) عنوان ورقم تليفون أصدقائها في باريس.

تواصـــل رنين الهاتف في الناحية الأخرى دون رد، ثم فجأة ســمعت صوت امرأة. سكتّ. ثم نجحت في طرح السؤال بصوت بارد لم يعتد سكان باريس سماعه:

– هل يمكنني الحديث مع (ميراي ماكسيموف) ؟

لم تكن موجودة، لكنها ستعود في المساء.

فـــي اليوم التالي، استقليت قطار النوم من محطة (براش)، كانت المقطورة غارقة في العتمة، ظلال نائمة على المقاعد هناك فـــي العمـــق، جلســـت بجـــوار الممر، طال توقف القطار على الرصـــيف فتســـاءلت ان كانت لديهم النية في تركي ارحل اليوم، راودنـــي شـــعور بأنني أفرّ، تحرك القطار، راقبت الساون وهو يختفـــي وأحسست أنني تخلصت من حمل ثقيل، أتذكر أنني لم أنم تلـــك اللـــيلة، أو ربما استسلمت لنعاس خفيف عندما توقف القطار دون سبب واضح عند رصيف مهجور في (ديجون).

على ضوء المصباح الأزرق فكرت في (ميراي ماكسيموف)، لا يمـــر علـــيها يوم غائم هناك على شاطيء توريمولينوس، قالت انها كانت تعيش وهي في مثل سني في مدينة صغيرة في (لاند) لـــم أعد أتذكر اسمها، نامت متأخرة جدًا عشية امتحان البكالوريا ولـــم يرنّ المنبه في الصباح، فنامت حتى الظهر بدلا من حضور الامتحان.

لاحقا، تعرفت على (ايدي ماكسيموف) زوجها، رجل ضخم وسيم من أصول روسية، يطلق عليه أصحابه لقب (القنصل)، مدمن لشرب الكولا مع الروم التي كان يدعوني لمشاركته أياها مع المقبلات، لكنني كنت أعتذر في كل مرة قائلة أنني أفضل الكولا بدون إضافات.

كان يتكلم الفرنسية بلا لكنة مميزة، عاش فترة في باريس، لكنني نسيت أن أسأل (ميراي ماكسيموف) عن المصادفة التي جعلتهما يعيشان في اسبانيا.

وصلت باكرًا جدا. في محطة (ليون)، كان الليل مازال مخيما. بشكل عام، يبدو لي الآن أن الليل ظل مخيمًا على باريس طوال الفترة الأولى لإقامتي فيها، لم أكن أحمل غير حقيبة سفر خفيفة، جلست في هذا الصباح الأول لوصولي في مقهى بميدان (تروكاديرو) مع (ميراي ماكسيموف)، كنت قد انتظرت في كافيتيريا المحطة حتى الساعة العاشرة لأتصل بها، لم تدرك في الحال من أين أتصل بها، كنت أول الزبائن في المقهى، يملؤني الخوف من أن تعاملني ببرود عندما أخبرها أنني لم أؤمن مكان اقامتي. تقدمت نحوي مبتسمة وكأنها جاءت تقابلني على الشاطيء، وكأننا افترقنا البارحة.

بدت سعيدة لملاقاتي وأمطرتني بالأسئلة، حكيت لها عن كل شيء، مقابلة دار الأزياء، و الصوت الجاف للرجل صاحب عيني الباشق، الذي سمعته لتوي الليلة الماضية بعد (ديجون) في اثناء نومي الخفيف : " هذا لونك الحقيقي ؟.. بروفيل.. ".

وهـــنا، وأمامها، أجهشيت بالبكاء. وضعت يدها على كتفي، وقالـــت أن كـــل هذا لا يهم.. فهو بالضبط كالبكالوريا التي فاتها امتحانها وهي في السابعة عشرة لأن المنبه لم يعمل.

رحبـــت باستقبالي في شقة اصدقائها. اجتزنا الميدان، وكانت حقيبة سفري خفيفة الحمل فعلا.

كانـــت تمطـــر كمـــا في (ليون)، لكن المطر بدوره بدا لي خفيفا.

تقـــع الشقة في آخر شارع (فينوس)، احتفظت خلال الأيام الأولـــى بورقة كتبت فيها العنوان ورقم الهاتف في حال تهت في بـــاريس، شـــقة ذات جـــدران ناصعة، يخلو صالونها من الأثاث تقريبا.

فتحـــت بـــاب غرفة صغيرة تكسوأحد جدرانها أرفف الكتب، وتقابلها من الناحية الأخرى أريكة من المخمل الرمادي، لا وجود لأي خزانة ذات مرايا، النافذة تطل على باحة فسيحة، أرادت جلب أغطية لكني أخبرتها بأن هذا غير ضروري الآن، أغلقت الستائر، وضـــعت حقيبتـــي دون أن أفتحها بجوار الأريكة، ونمت بسرعة يهدهدني صوت المطر المنهمر في الخارج.

استيقظت عدة مرات ولكن سرعان ماكنت أغفو مجددا، كنت أســلك طلعـــة (سانت بارتيليمي) حين فوجئت بعدم وجود حائط اللازاريست على يميني، لم يبق غير ممر ضيق مؤدي إلى ميدان (تروكاديـــرو)، كانت تمطر لكن السماء بدت صافية بلون أزرق فاتح.

في الأيام التالية، اصطحبتني (ميراي ماكسيموف) معها في انحاء باريس. كنا نعبر السين ونقصد (سان جيرمان دي بيريه) حيث تلتقي اصدقائها في مقهى (نوياج) أو (لامالين)، كنت أجلس معهم دون أن أجرؤ على التفوه بكلمة.

أحيانا لم تكن تعود إلى المنزل قبل السابعة مساءا، فأقضي فترات بعد الظهر وحيدة، أتمشى حتى غابة بولونيا حيث يكون الطقس مشمسا في الغالب، قد يتساقط بعض المطر الخفيف دون أن أنتبه إليه في البداية، ثم تعود الشمس لتسطع على ورق الأشجار الأصهب، وفي ممرات حقل (كاتالان) العابقة برائحة التراب المبتل.

في طريق العودة، يكون الليل قد هبط، ويتملكني قلق غامض عند التفكير بالمستقبل، يبدو لي وكأنه مازال موصدًا، كما كان أمام حائط اللازاريست، ثم أطرد الأفكار السوداء، فاللقاءات متاحة دوما في هذه المدينة، كنت أرفع رأسي نحو النوافذ المضاءة، على طول الشارع الذي يصل بين (تروكاديرو) وغابة بولونيا، كانت كل نافذة تبدو لي وعدًا، اشارة بأن كل شيء ممكن.

رغم الأوراق الميتة والمطر، كان الجو مشحونًا بالكهرباء، خريف غريب، مغلق على نفسه ومنزوع نهائيًا من بقية حياتي.

حيث أوجد الآن لا خريف، مرفأ صغير على البحر الأبيض المتوسط، توقف فيه الزمن بالنسبة لي، شمس ساطعة يوميًا حتى أموت، وفي المرات النادرة التي عدت فيها إلى باريس في السنوات التالية، كنت أصدق بصعوبة أن هذه هي نفس المدينة

التي قضيت فيها ذلك الخريف، كان كل شيء فيها قد أصبح أكثر عنفًا، أكثر غموضًا : الشوارع، الوجوه، الأضواء... وكأنني أحلم، أو كأنني مخدرة، أو ببساطة كأنني مازلت صغيرة جدًا على تحمل كل تلك الطاقة الكهربية القوية المحيطة بي.

عند عودتي هذا المساء، صادفت على درج البناية رجلا اسمر يرتدي مشمعا يقيه المطر، كنت قد رأيته من قبل مع الآخرين في (سانت جيرمان دي بيريه)، عرفني وابتسم لي، ربما كان يوصّل (ميراي ماكسيموف) إلى المنزل، ضربت الجرس، استغرقت وقتًا طويلا لتفتح لي، لم تكن ترتدي غير بشكير أحمر، وكان شعرها مشعثا، الصالون كان معتما، شرحت لي أنها كانت نائمة، لم أجرؤ على القول بأنني صادفت الرجل على الدرج، تخللت نظراتها مسحة من الإعياء، ضمتني من كتفي وقبلتني، سألتني عما فعلت خلال فترة بعد الظهر، واستغربت نزهاتي الفردية في غابة بولونيا..

يجب أن تجدي عشيقًا. قالت لي، أتعرفين ؟ ليس هناك أفضل من الحب. كنت اوافقها الرأي، لكنني لم أجرؤ على أن أخبرها أن علي أن أفتش على عمل أيضًا، لم أرد العودة إلى (ليون)، كنا جالستان في وسط الصالون ولم تكن قد أشعلت النور. أضواء البناية المواجهة جعلتنا نطفوا في الظل، أحاطت كتفي بيدها وكانت عقدة بشكيرها قد انحلت، رائحتها كانت مسكرة، ربما مسكًا روميًا، وددت أن أبوح لها بما بدأت أدركه ولكنني لزمت الصمت. إن أحدًا لا يعلم بوجودنا هنا، كنا نقيم هنا بلا صفة

شـــرعية. لقد كسرت (ميراي) القفل واقتحمت الشقة. لم يكن من المفــترض أن أغــادر (لــيون). الصالة الخاوية أشعرتني بعدم الارتــياح. الشـــقة لم تستعمل منذ زمن واللصوص سرقوا أثاثها. ســـألتني لـــم أبدو مهمومة، حاولت أن أجد الكلمات لأجيبها، كان لطـــيفًا مـــنها أن تستضـــيفني، لكنني كنت أشعر أنني دخيلة، لقد وضعت نفسي في وضع صعب بمغادرتي المفاجئة لـــ (ليون)، ولا أريـــد أن أظـــل عبـــئًا عليها، هل ستخبر أصحاب الشقة أنها استضافتني ؟

وهـــل تعرفهم حقًا ؟ بصراحة، أخشى أن نكون نحن الاثنتين نقـــيم هـــنا بلا شرعية، وأن يأتي أصحاب الشقة فجأة ليطردوننا. انفجـــرت فـــي الضحك، ثم توصلت بصوتها الناعم، ودمها البارد ولامـــبالاتها التـــي أحسدها عليها إلى تبديد قلقي. فصاحبة الشقة صـــديقة قديمة لها، انسانة متقلبة بعض الشيء متزوجة من تاجر فـــراء ثري ،وان كنت أرغب في معرفة كل شيء، فـــ (ميراي ماكسيموف) أيضا وصلت ذات يوم إلى باريس في قطار بوردو، فـــي ذلك الوقت كانت وحيدة، وكانت في مثل عمري، وفي البداية عاشت في غرفة في الحي اللاتيني، والتقت بالمرأة صاحبة الشقة عندما تقدمت للعمل كبائعة استجابة لإعلان يطلب آنسة للعمل في محل الفراء الذي يملكه زوجها، عرفتها هذه المرأة بكل أصدقائها في (سانت جيرمان دي بيريه)، وبـــ (ايدي ماكسيموف) الذي سيصـــبح لاحقـــا زوجهـــا، كانت تصطحبهم بسيارتها الأميركية

الطــراز، إلى (مونتفور لاموري)، أو إلى (دوفيل) في عطلة نهاية الأسبوع، كانت حياة حلوة.

لـم يكـن هـناك داع للقلق، فالمرأة كانت أكثر من سعيدة لإعارتها المنزل لـ (ميراي)، عندها امتلكت الشجاعة لأخبرها أنني رغم هذا قلقة على مستقبلي..

– مـاذا سيحل بي في باريس دون عمل ؟ نظرت إلي للحظة في صمت..

– أنا أيضا.. قالت.. كنت خائفة عندما وصلت إلى باريس.. لكـن الأمور تتحسن في النهاية، وانت لا يمكنك أن تتصوري كم أنـت محظوظة بكل هذه السنوات التي مازالت تنتظرك.. ثم انني سـوف أسـاعدك، أعـرف أشخاصا في باريس، وبإمكانك دائما العودة معي إلى اسبانيا..

شـعرت بالطمأنيـنة، أحسست أنها تتمنى لي كل خير، كان يكفي أن أثق بها لتصبح الحياة جميلة..

ذات مساء قصدنا المسرح لمشاهدة ممثلة اسمها (باسكال)، تـدور أحـداث المسرحية في عصرنا الحالي، بلد خيالي وقصر احـتجز فـيه بعـض الأشخاص المتأنقين بسبب عاصفة ثلجية، يـرتدون جمـيعا ثيابا مخملية سوداء بياقات بيضاء كبيرة، بدت النسـاء كالوصيفات والرجال كالفرسان.. من وقت لآخر يتصاعد صوت بيانو قديم، الصالون الواسع كانت تضيئه شمعدانات كبيرة، وكان الأثاث قديمًا تتخلله بيوت العناكب ومع ذلك كان ثمة وجود

لتلـــيفون، وكانوا جميعا يدخنون السجائر ويحتسون الويسكي على ضوء الشموع، يتحدثون بملامحهم التي تعكس التميز.

كانت تمطر بينما نغادر المسرح، ركبنا (ميراي ماكسيموف) وأنا في سيارة أحد أصدقائها وذهبنا لموافاة الباقين في المطعم، ثم لحقـت بـنا (باسكال) متأخرة و بصحبتها رجل أربعيني حليق أشـيب، كـان مخرجًا سينمائيًا له وجه صارم كوجه ميت، ويريد توظـيف (باسكال) في فيلم أخذا في الحديث عنه طوال العشاء، حكـى المخـرج القصـة التـي لـم أفهـم منها الكثير مستخدمًا مصطلحات علمية، قصة أزواج يجتمعون في منزل في البرتغال، ثم في شاليه لرياضات الشتاء، ثم قصر في (بورجوني)، النساء جميلات والرجال اذكياء.. قال المخرج، ثم بالتتابع، يغير الأزواج شـريكاتهم والزوجات شركائهن، وكان هذا برأيه " بمثابة اشكال مـن الهندسة الفراغية "، كنت جالسة بجوار(ميراي ماكسيموف) التـي بدت بدورها غير مدركة تماما لحديث المخرج، لكن الجميع كـانوا يصغون إليه باحترام شديد، ثم قرروا الذهاب لتناول كأس فـي مكـان مـا، لكـن المكان كان هو ذاته دوما : (نياج) أو (مالين).

كـنا فـي السيارة من جديد، توقف الجميع عن الكلام فكنت سـعيدة بالصمت، السيارة تحاذي الأرصفة تحت المطر، تطمئنني الأضواء والإشارات الحمراء.

أحببت الليل في باريس، كان يهدئ القلق الذي غالبًا ما تملكني في فترات ما بعد الظهر، أردت لو يتركونني أمشي لوحدي في الهواء الطلق على طول تلك الأرصفة..

- لن تظلي حتى تموتي من السأم في المنزل.. تقول (ميراي ماكسيموف)، وتصطحبني معها كل مساء لملاقاة هؤلاء الأشخاص، كنا نسهر معهم حتى وقت متأخر جدا، حيث كنت بالكاد استطيع ابقاء عيني مفتوحتين، أحاديث صاخبة، ومطاعم لها ديكورات غريبة، سراديب مقببة بها طاولات يقدم عليها العشاء على ضوء الشموع.

في أماكن أخرى، كانوا يشوون اللحم على سيخ أمام مدفأة كبيرة، شمعدانات، مرايا مصقولة، و أرفف خشبية.

في أمسيات الطقس الجميل، أمسيات الصيف الهندي كما كانوا يطلقون عليها، يجلسون إلى طاولات يصفونها على الرصيف، كنا نجلس متراصين إلى بعضنا البعض في ذات الشوارع (بيرنارد باليسي)، (سانت بانوا) التي كانت (ميراي ماكسيموف) تعطي اسمائها لسائقي التاكسي.. رافقتها إلى بيوت اصدقائها.. مساء الأحد كنا نقصد أتيليه ناحية حديقة (مونتسوري) حيث نتناول أطباقا برازيلية، دائما عشرة اشخاص، وموسيقى برازيلية، بينما هم يتكلمون، أنا لم أكن أنبس، كنت أظل منعزلة عنهم، غالبا ماكنت أغادر هذه السهرات إلى جولة في الجوار، انسحب دون جذب انتباه أيا منهم، كان جميلا تنشق الهواء الطلق والسير وحيدة في الليل، غادرت (ليون)،

وهربت لتوي من مكان يتكلم فيه الناس بصوت مرتفع، أناس لا أعرفهم، وكأن حياتي هرب بغير نهاية.

كنت واثقة من أن طريقي سوف يتقاطع مع طريق شخص آخر يفكر مثلي في الناحية الأخرى من باريس، في مساء أحد الآحاد لم أعد إلى أتيلييه حديقة (مانسوري)، سمعت من أسفل البناية الموسيقى البرازيلية وصخب الأحاديث.. مشيت حتى الشقة في شارع (فينوس) مجتازة باريس، لم يعد شيء يخيفني، ولا حتى المستقبل، الميادين والشوارع المفتوحة أمامي خالية، والأضواء أكثر سطوعًا من العادة، والهواء يعبث بأوراق الشجر فتصدر حفيفًا، رغم أنني لم أكن مخمورة.

عندما وصلت إلى المنزل، وجدت (ميراي ماكسيموف) قلقة، سألتني عن سبب مغادرتي المفاجئة، أخبرتها أنني شعرت بنفسي على غير مايرام وأردت أن أتمشى، ثم أن كل هؤلاء الناس يربكونني، انهم يكبرونني سنا ويفوقونني ذكاءا، ليس لي مكان بينهم، ومن ثم أين هو مكاني ؟ لم أجده بعد.

داعبت جبيني كما كانت لتفعل أخت كبيرة، لكنها لم تكن تأخذ على محمل الجد ماكنت أبوح به، استخلصت قائلة :

- لابد أن يصبح لديك من يشغلك.

ذات أحد، اصطحبتني للغداء في مطعم صيني في حي (الشانزليزيه)، عند وصولنا تعرفت على الرجل ذي المشمع الذي صادفته ذلك المساء على الدرج، كان في انتظارنا وبصحبته رجل اسمر أكبر منه، يرتدي سترة من الجلد تحتها بلوزة سوداء

بـــياقة عالية، قبلت (ميراي ماكسيموف) رجل الدرج، أحاول أن أتذكر اسمه، كان (والتر) واسم عائلته ايطالي لم أعد اذكره، قدم الأسمر نفسه الينا ثم صافحنا :

(غي فانسان)، فيما بعد عرفت أن هذا ليس اسمه الحقيقي، فكنت انزعج من اسلوبه الفج حيث يتقدم نحو الشخص، يمد له يده مع تمتة في كل مرة بنبرة خاطفة : غي فانسان..

الآن أدرك أن هـــذا الاسم كان بمثابة وسيلة دفاع بالنسبة له، حاجـــز يسارع في وضعه بينه وبين الآخرين، لكن يتهيألي أنه فيٍ ذلـــك الأحـــد عندما رأيته لأول مرة وصافحني كان صوته مختلفا بيـــنما يـــنطق اسمه المستعار، اعتقد أنه نطقه مع بسمة ساخرة، وكأننا نتشارك سرًا من الآن فصاعدًا، جلس (غي فانسان) على المقعـــد بجواري، مرت لحظات من الصمت، ثم انحنى (والتر) نحو (ميراي ماكسيموف) :

– إنه (غي) الذي حدثتك عنه...

ابتسمت قائلة انها سعيدة بلقائه، بينما تملكتني الرهبة كالعادة، لـــم أنـــبس ببنـــت شفة، أعتقد أن (والتر) الجالس أمامي صديق (مـــيراي ماكســـيموف) يعمل كمصور حسب ما فهمت، وغالبًا ماكانوا يرسلونه إلى المناطق الخطيرة، حتى أنه أصيب في احدى الحروب التي لا أعرفها، وتعرّف على (غي فانسان) في إحدى مقاهي الشانزليزيه التي كان يرتادها مع مصورين آخرين، (غي فانســـان) بـــدوره لـــم يـــتكلم فـــي بداية الغداء، حاول (ميراي

ماكسـيموف) التخفيف من حدة التوتر في الجلسة فشرعت تسأله أسئلة تافهة كان يجيبها بنعم أولا، أشار (والتر) بإصبعه اليّ :

– وهذه الفتاة الشابة ؟

استدار (غي فانسان) محدقًا نحوي بفضول..

– تعرضـت لحادثـة مشـئومة غريـبة.. قالـت (ميراي ماكسيموف) وغمزت لي خلسة..

قالـت إننـي اتيت من (ليون) وأخبرتهم قصة البكالوريا، قصـتها هي التي حدثت في مكان ما في (لاند) منذ وقت طويل علـى أنهـا قصتي أنا : لم يرنّ المنبه صباح الاثنين في الساعة السابعة..

كـان هذا لطيفًا منها، ربما اعتقدت اننا متشابهتان لدرجة أن حياتينا من الممكن أن تكونا متشابهتين.

انفجر (والتر) في الضحك :

– انـت محظوظـة.. قال لي.. لم يشأالقدر أن تحصلي على البكالوريا.

تضايقت قليلا.. أمسكت (ميراي ماكسيموف) بيدي..

– اتمـنى ألا تعـيدي محاولـة التقدم لهذه الامتحانات، انها مضيعة للوقت.

حـافظ (غي فانسان) على صمته، ولم تقتصر نظراته على الفضول، بل اصبحت تعكس قلقا وكأنه يحاول سبر أغواري..

– هل أحزنتك هذه الحادثة ؟ سألني بنبرة اهتمام..

حاولت أن ابتسم له..

- أنا لا أوافقكما الرأي.. قال وهو يستدير نحوهما، انها تظل مسألة مزعجة بالنسبة لها حكاية البكالوريا هذه..

سـألـه (والـتر) اذا ماكـان حائزا على البكالوريا، فأجاب بالنفـي.. لكـنه يشعر بالندم لذلك.. وفسّر بأنه عندما كان في سن الـتقدم للامتحانات كانت نهاية الحرب في بلاده، وتم ترحيله إلى سويسرا بصحبة مجموعة لاجئين في مثل سنه، مكثوا لوقت طويل فـيما يشـبه الملجـأ في (ليون)، لكنهم لم يتلقوا هناك البرامج الدراسية، كانوا يدربونهم معظم الوقتعلى الأشغال يدوية.

تغلبت على خجلي، سألته :

- أقضيت وقتا طويلا في (ليون) ؟

- ليس طويلا.. حوالي ستة أشهر.

لكننـي لـم أجـرؤ في اليوم الأول من تعارفنا أن أسأله اسم الملجـأ الذي كان فيه في (ليون)، بالنسبة لي كان الأمر بديهيا، تخيلته وراء حائط ملجأ (اللازاريست) الأسود.

اثـناء خروجنا من المطعم، اخبرتني (ميراي ماكسيموف) انهـا سـتعود للمنزل متأخرة، قبّلني (والتر) على وجنتيّ، كان سـعيدا لأنـه تعـرف علـي أكـثر، رغم أنني لم أحصل على البكالوريا..

اسـتقلا سيارة، وانزلت (ميراي ماكسيموف) زجاج النافذة ولوحت لي بيدها.

كنــت وحــدي مع (غي فانسان)، سألني ان كنت اقطن في الجــوار، أخــبرته ان المنزل يقع قرب (تروكاديرو)، لكنني لا أعرف باريس جيدًا، ومازلت أخطيء في تقدير المسافات.

- سأتمشــى معــك قليلا.. فإذا كنت متعبة، فلنستقل المترو باتجاه ساحة النجمة.

حينــئذ شعرت أنني منيت أخيرا باللقاء الذي طالما تمنيته منذ وصولي باريس، و بقيت هذه العبارة محفورة في ذاكرتي بعد كل هذه السنوات، لدرجة انني مازلت اسمع صدى صوته.

منذ عدة أيام، بينما كنت أتمشى عند المرفأ في هذا البلد الذي لا يــتاح لــي فــيه الحديث مع أحد بالفرنسية، تهت في أفكاري، ومجددا سمعت العبارة ذات اللكنة الباريسية :

- فإذا كنت متعبة.. فلنستقل المترو باتجاه ساحة النجمة.

التفتّ، طبعًا لم يكن هناك أحد.

بعد ظهر ذلك الأحد، كنا نمشي ضمن جموع المتنزهين على الرصــيف الأيمــن لشــارع الشانزليزيه، تحت الشمس، فاضت طــاولات المقاهي حتى غطت الرصيف، نهار آخر يشبه الصيف الهندي كما يطلقون عليه في مساءات مقهى (مالين).

- هل تعبت ؟

سألني (غي فانسان).

كلا لم أكن تعبة..

- نستطيع اذا أحببت أن نتمشى في غابة بولونيا. قلت له.

عند مدخل (دوفين)، سلكنا طريق البحيرات، وكنت أنا التي أرشده.

- يبدو أنك تعرفين الغابة جيدًا.

في الحقيقة، نعم.. غالبًا ماتنزهت هناك بعد الظهر.

لـــم أكـــن أطـــيق البقاء وحيدة في منزل (فينوس)، فكنت أهـــرب، كمـــا أفعـــل في الأمسيات التي أقضيها بصحبة أصدقاء (ميراي ماكسيموف) ،وفي كل مرة أشعر بنفس لذة اختفائي دون جذب الانتباه وتملّصي منهم بخفة.

جلسنا على مقعد على ضفة البحيرة، سألته إن كان يتنزه هنا أحيانًا.

كلا. ليس منذ مدة طويلة.

كـــان يكبرني بحوالي عشرة أو خمسة عشر عامًا، كان دون شك يزاول مهنة ما، كان ينظر إلي كما فعل منذ قليل في المطعم، بانتباه يكاد يشوبه القلق.

فـــي النهاية، هو أيضًا كان مرتبكًا بخصوص محاذير التعامل معي.

سألني عن عمري، أردت أن أبالغ قليلا، لكنني وجدت أنه من الأفضل أن أذكر الحقيقة، ومع ذلك أضفت سنة. تسعة عشر سنة.

بدت عليه المفاجأة، كان يتصورني أكبر من العشرين بقليل.

كانت العائلات تمر أمامنا، والأطفال المسحوبين وراء الأهل بإهمـــال، تناديهم الأصوات باسمائهم، أصوات كالعويل، مشحونة بالتسلط، تضيع شيئًا فشيئًا في البعيد.

صـــرخ أحدهم عدة مرات : غي. فتنبهت إلى ان اسمه أيضًا غـــي، لكـــنه لم يتحرك. لم أكن عرفت بعد أن هذا ليس هو اسمه الحقيقي.

- في الواقع، قلت بصوت متردد، أنا أفتش عن عمل.

وبســـرعة فائقة، لدرجة أن الكلمات كانت تتدافع، اعترفت له بقســـم مـــن الحقـــيقة : جئـــت من ليون، أقيم حاليا عند (ميراي ماكسيموف) وأفتش عن عمل في باريس.

- وأهلك.. مارأيهم بكل هذا ؟

أربكنـــي الســـؤال، لـــم أفكر بأهلي للحظة واحدة وأنا أغادر لـــيون.. لـــم تكنْ لا مبالاة، لكنني كنت قد ابتعدت عنهم منذ وقت طويـــل، مع أنهم مازالوا يظهرون في مشاريعي المستقبلية، عندما تكـــون حياتي قد اتخذت منحى أكثر وضوحًا، وأكون قد تخلصت من احساس الشك الذي ينتابني كل صباح، ويومًا ما، سيصبح كل شيء في حياتي واضحًا ومتينا، وسأكون سعيدة بلقائهم مجددًا.

- لم يعد لهم تأثير كبير عليّ. قلت له.

ســـرنا أيضًـــا في الممرات المشجرة ناحية حقل (كاتلان)، كـــان الناس يتناقصون كلما توغلنا، والممرات تتحول أدغالاً أكثر فأكـــثر، ثـــم كان هو الذي أخبرني أن علينا أن نعود أدراجنا والا تهنا.

ســـألته عـــن مهنته. لا شيء مهم، رحلات عمل بين فرنسا وسويسرا، كان يدير مع شركائه وكالة ما في باريس، عمل تافه، من النوع الذي يضجر الآخرين أن تتحدث عنه.

لم ألحّ عليه.
قصـــدنا عند العصر أحد صالونات الشاي في غابة (بولونيا). العـــائلات التي شاهدناها تمر عند البحيرة منذ قليل احتلت بعض الطـــاولات. وحـــول الطاولات الأخرى تجمعت نساء من أعمار متقاربة يتكلمن بصوت مرتفع جدًا.

كـــان يتلفت حوله، تسائلت ان كان مثلي يأتي لأول مرة إلى مكان كهذا.

– غريـــب. قـــال لـــي. النســـاء هنا يرتدين معاطف الفرو الروسي.

مظهره الذي كان دائما يعكس الهدوء والتفكير، بدا لي لاحقًا، فـــي كل مرة ارتدنا فيها مكانا عاما، مرتبكًا، وكأنه لا يملك قواسم مشتركة مع أي أحد، كغريب لا يتكلم لغة أهل البلد ويخشى طوال الوقت أن يخاطبه أحدهم.

لكنه كان يحافظ على هدوئه ويظهر بمظهر لائق.

كأنـــه كـــان يعتقد أن سوءًا سيلحق به لو بدا على وجهه أي ارتـــباك، لـــذا كان يتجنب أي انفعال أو حركة مفاجئة. كان يبتسم ابتسامة غائبة.

– عـــددت أربعة عشر امرأة يلبسن معاطف الفرو الروسي. تستطيعين أن تتأكدي من الرقم بنفسك لو أردت..

شـــعرت بتواطـــيء يجمعنا، كلانا لا ينتمي إلى هذا المكان.. لكن هو، هل كان ينتمي لأي مكان؟

ركبــنا المــترو حتى ساحة النجمة، ثم بدلنا الخط ونزلنا في محطـــة (تروكاديرو)، أراد أ ن يرافقني حتى المنزل، مشى إلى جانبـــي بخطواتـــه المنتظمة التي كلما تذكرتها تأكدت أنه ما من شيء كان بمقدوره تغيير ايقاعها. كانت تمثل طريقته في عدم لفت الأنظار، فعلى المرء مثلا ألا يلتفت أبدًا إلى الوراء اذا كان هناك مـــن يتتــبعه، وكلمـــا شعر بتهديد ما عليه أن يتابع المشي بنفس الخطى الهادئة.

عـــندما توقفـــنا أمـــام منزل (فينوس)، سألني إن كان لديّ مشـــاريع خاصة لتمضية الأمسية، قلت أنه ليس لدي شيء محدد، للأســـف، لـــن يستطيع أن يدعوني للعشاء الليلة لأن لديه مواعيد، لكن في الغد، بعد غد، في كل الأيام المقبلة..

كان يقيم وقتها في فندق، أعطاني رقم هاتف، اتصلت به في عصـــر اليوم التالي، كنت وحدي في المنزل ووصف لي أن علي أن أبـــدّل الخـــط فـــي (الـــنجمة) ثـــم أنزل في محطة (جورج الخامس)، ثم طلب مني أن اتناول ورقة وقلمًا وأملى عليّ عنوان الفندق، لو كان لي أن أحكم من نبرة صوته لأكدّت أنه فعلاً خائف علي من أن أضل الطريق.

كـــان الفـــندق قريبًا جدًا من المطعم الصيني الذي تقابلنا فيه الـــبارحة، فـــندق (بـــيري)، شارع (فريدريك باستيا). سألت موظفـــة الاستقبال عن السيد (غي فانسان). امرأة سمراء ترتدي بذلة ضيقة، ظللت أمر أمامها يوميًا لفترة أتوهم أنها دامت طويلا

كأنهـــا حقبة كاملة من حياتي، لكن حين احسبها، أجدها لا تتخطى ثلاثين يومًا.

صـــعدت الســـلم حتى الطابق الأول، كان ينتظرني في فرجة الـــباب، كأنه كان خائفًا من أن أغيّر رأيي في آخر لحظة، توقفت للحظـــةُ عند الدرجة الأولى من السلم وقد انتابتني رغبة قوية في الهرب.

جلست مرتبكة على طرف الفراش، كان ثمة مقعد هناك بين نافذتين، لكنه بدا لي بعيدًا جدًا.

ظل واقفًا أمامي.

- شعرك مبلول.

كـــان المعطف الذي أرتديه مبلولاً أيضًا، لأن المطر الخفيف، الـــذي تكرر هطوله مرارا هذا الخريف، فاجأني فور نزولي من المترو.

عـــاد وبيده منشفة جفف بها شعري برفق، جلس بجانبي على طرف الفراش.

- كان عليك خلع معطفك..

قالها بصوت منخفض وكأنه يكلم نفسه..

أحسســـت كمـــا لـــو كنا قد دخلنا هذا الفندق معًا لنحتمي من المطـــر في هذه الغرفة، كما لو أنني وصلت هذا الصباح فقط إلى بـــاريس، جـــاء يستقبلني في محطة ليون، بهرني لمعان الضوء، وركـــزت سمعي في التقاط صوت المطر، لم أعد أعرف أين أنا بالضـــبط، لا أعرف شيئًا عنه، لكن هذا لم يعد مهمًا. أمسكني من

كتفـــي فقبلـــته، تـــبخر قلقي وحيائي، ولم يزعجني أنه لم يطفيء الضوء، حتى أنني وددت لو كان أقوى وأسطع ليطرد الظلال.

عـــندما عـــدت إلـــى المنزل في اليوم التالي، كانت (ميراي ماكســـيموف) قـــد اســـتيقظت، قالت أنها قلقت لغيابي و لكنها لم تطرح أية اسئلة، أخبرتها أنني قابلت بعض أصدقائي من (ليون) وطالت السهرة أكثر من المتوقع.

فـــي الأســـابيع التالـــية واصلت الكذب محتفظة بسري حتى الـــنهاية، لكننـــي أتســـائل اليوم عن ماذا كنت لأحكي، هذه أشياء عادية، قد تحصل مع أيًا كان، مازلت أذكر تلك الليلة حين أفضى لي بأن (غي فانسان) ليس اسمه الحقيقي. اصطحبني إلى مطعم قريـــب مـــن الفندق، لم يكن يغادر الحي الذي يقيم فيه، وفوجيء أننـــي مـــن مواليد (ليون)، لقد أمضى في هذه المدينة الصغيرة وقـــتا أقصـــرمن أن يستطيع أن يصف لي مكان الملجأ الذي أواه ورفاقـــه، لـــيس بعيدًا عن الساون، سلم مرتفع، منازل عتيقة، هل يذكـــر طريقًا صاعدًا، حائطًا أسود، وبنايات ضخمة من الباطون المســـلح ؟ لا يســـتطيع الجـــزم لكنه يعتقد أن وصفي ينطبق على المكـــان الذي عاش فيه، اذًا هو بالتأكيد ملجأ (اللازاريست). أنا كنت أؤمن بالصدف.

لاحقًـــا عـــند ذهابـــه إلـــى باريس، وصل بدوره إلى محطة (لـــيون) ذات صـــباح، في نفس الساعة التي وصلت فيها، كان تقريبًا في مثل سني.

كـــان قـــد بدأ بسرد حكايته لي في غرفة الفندق، تحت ضوء المصــــباح الذي كان يتركه مضاءًا دومًا، حتى في النهار، والذي انتهيــت إلى الاعتياد عليه مقتنعة بسذاجة أن هذا النور الساطع قد يبدد الغموض الذي يلفه.

عـــندما وصـــل بـــاريس صـــباحًا، لم يجد أحدًا في انتظاره بالمحطـــة، فـــي الشارع الذي أمضى فيه طفولته لم يجد أهله ولا أصحابه. اختفوا.

أخبرنـــي بكل هذا لأنني قادمة من (ليون)، تلك المدينة التي تحتضن مرحلة من حياته عندما كان في مثل سني، ولأنني ناديته فـــي تلك الليلة للمرة الأولى بـــ (غي)، اذ انني نطقت الاسم من شـــفاهي ولـــيس من قلبي، لم يكن يريحني، أحسست أنه لا يناسبه مطلقًا، وكأنه أحس بتحفظي، فقال لي : " طبعًا تستطيعين مناداتي ب غي ". وانفجر بالضحك.

سمعته يردد : " غي.. غي " وكأنه يبغي هو أيضًا التأقلم مع اللفـــظ، انفجرت بالضحك بدوري، عندها، اضاء المصباح وفسّر لـــي أن غي فانسان هو اسمه المستعار. سألته ان كان بإمكاني أن أناديـــه باســـمه الحقيقي.. " بادرة لطيفة منك "، لكنه رفض، فقد اعـــتاد غـــي فانسان، بالنسبة له، (غي فانسان) يعكس الحيوية، الربـــيع واللون الأبيض، اسم مطمئن، ومن ثم، هذا يخلق مسافة، كـــان (غي فانسان) حاضرًا دائمًا بينه وبين الآخرين كأخ توأم، كملاك حارس.

ضـــحك مجددا، وضحكت، كأن هستيريا الضحك معدية، هل كنـــت فعـــلا راغبة في الضحك ؟ تحت ضوء المصباح، بدت لي الغرفة باردة، مهجورة. كنت بصحبة غريب، يختبيء خلف هوية آخـــر، لاحظـــت أنـــه لم يكن يترك شيئا مبعثرًا على الطاولة أو الأريكة أو الموكيت.. ولا قطعة واحدة من الثياب، ولا عقب واحد من أعقاب سجائره، ولا فردة واحدة من فردات أحذيته.

كـــنا نخـــرج من الغرفة دون ترك أي أثر يدل على مرورنا بهـــا، باســـتثناء الفراش المبعثر، رغم أنني لاحظت حرصه على ترتيـــبه من وقت لآخر كعادة اكتسبها من أيام الملاجيء، كما كان يقول.

كان يحتفظ بحقيبة وثياب وبعض الأغراض والكتب في غرفة كبيرة بالوكالة حيث كان يعمل مع شركائه، رافقته عدة مرات إلى هناك في أوقات متأخرة.

كانـــت الوكالـــة قريـــبة جدا من الفندق، في بناية في شارع (بونتـــيو)، كانـــت خالـــية دائما في الأوقات المتأخرة من الليل، انـــتظره فـــي المكتب حتى يجلب بعض الحاجيات من الحقيبة ثم نعود إلى الفندق.

مـــرة واحدة فقط، قدّم نفسه باسمه الحقيقي، حدث ذلك خلال رحلـــة قمـــنا بها الى سويسرا، كنا جالسين لسبب أجهله في باحة فـــندق في شارع (أوشي) في لوزان، وإلى جوارنا يجلس رجال ونســـاء بـــرجوازيون يعكســـون الثراء، فرنسيون بسلوك رجعي

وثــياب ذابلـــة وصحة جيدة، بشراتهم اكتسبت لونًا برونزيًا ومن الواضح أنهم يعرفون بعضهم البعض.

علـــى طاولـــة كبـــيرة، كتب متراصة ورجل له وجه صارم وربطـــة عـــنق يوقّـــع للناس اهداءات، كانوا يتفرسون فينا بأعين قـــرأت فيها الاستنكار والامتعاض، لابد أنهم يفكرون في أننا لسنا من عالمهم ويعجزون عن تفسير لوجودنا بينهم. أحاول أن أتخيل كيف كنا نبدو.

منذ قليل على المرفأ، لاحظت فتاة شقراء تجلس مع رجل ذي وجـــه شـــاحب، كنـــت اشبه تلك الفتاة عندما كنت صغيرة، كانت عيـــناها محدقـــتان وكانـــت مصـــغية وصامتة، والرجل ذكّرني بــــ (غي فانسان) لشعره الداكن وأسلوبه اللامبالي في التدخين أو في سكب الكأس.

لكن (غي) – يجب أن أشير اليه بهذا الاسم – كان أضخم، ويمشـــي بشـــكل أكـــثر رشـــاقة، بخطى خفيفة وكأنه يمشي على أطراف أصابع قدميه.

فـــي ذلـــك اليوم، في (لوزان)، في باحة الفندق، قام ومشى بنفس تلك الطريقة بين كل هؤلاء القوم المميزين، كان تائهًا وسط تجمعهـــم الاحتفالي، فخفت أن يصطدم بهم في طريقه، كنت واثقة مـــن أنـــه ثمـــل، ثم عاد ليأخذني، أحاطني بذراعه واقتادني حتى الطاولـــة حيث يهدي صاحب ربطة العنق كتابه، تناول واحدة من النســـخ المكدسة، كان اسم الكتاب : " الحياة في مادير "، احتفظت طويلا بهذه النسخة لكنني أضعتها عندما غادرت فرنسا.

كـان الكاتـب محاطًـا بالجموع، تصفّح (غي) الكتاب، ثم انحنى على الكاتب :

- هل من الممكن أن تكتب لي إهداءًا ؟

رفـع الآخـر رأسه، لم يكن وجهه ودودًا، كانت ربطة عنقه منقّطة.

- اسمك ؟ سأله بنبرة جافة.

عـندها، نطـق (غي) اسمه الحقيقي، سمعته لأول مرة : (البرتو زمباليست). عقد الكاتب حاجبيه كأن وقع الاسم لم يرق له، قال باحتقار :

- هلا قمت بتهجئته لي ؟

وضع (غي) الكتاب مفتوحًا على الطاولة وأطبق بيده على كـتف الكاتب مثبّتا إياه على الكرسي وجعل يضغط أقوى فأقوى بينما انحنى الآخر وهو يحدّق فيه بذهول. هجأ له (غي) اسمه، بينما الجميع من حولنا يراقبونه بقلق.

كـانوا متحفزيـن للـتدخل، لكـن ضخامة (غي) جعلتهم يـترددون، خضـع الكاتب وكتب الإهداء، كان العرق يقطر من جبينه، كان خائفًا.

اسـترد (غـي) الكتاب لكنه لم يبعد يده مباشرة عن كتف الكاتب الذي كان يرمقه بقسوة زامًا شفتيه :

- ألن تفلتني يا استاذ ؟ قال بصوت غاضب.

ابتسم له (غي) بلطف وأزاح يده، اعتدل الكاتب وأصلح ربطة عنقه في محاولة لتحسين هيئته، وحدّق فينا بعينيّ أفعى، خفت أن يستدعي الشرطة.

بعد أن تفحّص (غي) عنوان الكتاب، سأله باسمًا :

- أهي جميلة، مادير ؟

لا أعرف ان كان قد أثقل في الشراب، أم أصابته إحدى نوبات اكتئابه المعهودة، في باحة ذلك الفندق، شعرنا بنفس الوحدة التي جمعتنا في أول موعد لنا في غابة (بولونيا)، بين العائلات التي تتنزه أيام الآحاد، والنساء المرتديات معاطف الفرو، لكنني الآن عرفت اسمه الحقيقي، هل كان اسمه حقًا ؟ يبدو أن أحدًا من معارفه في باريس يعرفه بهذا الاسم، إلى أي سن حمل هذا الاسم؟ لم أجرؤ على سؤاله.

أقلّني بعد ظهر أحد الأيام إلى شارع (فينوس) لأطمئن (ميراي ماكسيموف) التي كانت لاشك قلقة بعد انقطاع اخباري عنها لثلاثة أيام متتالية.

قال لي " سأريك أين كنت أسكن عندما كنت صبيًا " قال " صبيًا " باللكنة الباريسية، المكان قريب جدًا، ناحية غابة (بولونيا).

أوقف السيارة عند أول حدائق (رانولاغ)، اسلوب نطقه لكلمة " صبي " لم يكن يناسب أبدًا هذا الحي.

مشينا في الممرات، كانت الشمس محجوبة وكل شيء يسبح في ضوء ملون، كنا ندوس على طبقة من الأوراق الميتة.

- كنت ألعب في هذه الحديقة أيام الخميس والأحد.

امتنعت عن سؤاله، كنت صغيرة، وكنت لا أزال أجهل عالم الرجال، لكنني أدركت أنه ليس من نوعية الذين يجيبون على الأسئلة.

وصلنا إلى شارع في قلب الحديقة، مشينا خطوات قليلة على الرصيف ثم توقف على مدخل البناية الأولى في الشارع..

- كنت أسكن هنا، في الطابق الثاني.

أشار إلى نافذة..

- هذه كانت غرفتي..

دفع بابًا كبيرًا بمصراعين، واقتادني إلى المدخل.

دق على الباب الزجاجي لحارس البناية، انفتح الباب وظهرت في فرجته رأس رجل أصلع، قال له :

- جئت أسأل عن أخبار السيد " كاربانتييه ".

حفظت هذا الاسم بالصدفة " كاربانتييه "، شرح الحارس أن السيد " كاربانتييه " رحل عن هنا منذ أمد طويل، منذ أن خلفه هو في الغرفة.

رفع (غي) كتفيه.

- هل ترك لك عنوانه ؟ سأله..

- لا..

عدنا نجتاز الشارع رجوعًا بمحاذاة حدائق (الرانولاغ)، شرح لي أن السيد (كاربانتييه) هو الحارس القديم للبناية التي كان يقطن فيها شقة واسعة مع أبيه قنصل (بيرو)، ثم وقعت الحرب، فعاد أبوه إلى بلده تاركًا إياه وحيدًا تحت رعاية السيد

(كاربانتيـــيه)، ثم بدا أن أباه نسيه، لأنه لم يسمع عنه أي أخبار بعد ذلك..

هل كان يخبرني الحقيقة ؟..

عصـــر ذلـــك الـــيوم، طلبـــت مـــنه أن نفـــترق في ساحة (تروكاديرو) لأنني لم أكن أريد أن ترانا (ميراي ماكسيموف) معًا..

قنصـــل (بيرو).. " قنصل " كان كنية (إيدي) أيضًا، زوج (ميراي ماكسيموف)، وأطلق عليه هذا اللقب نسبة إلى شخصية روائية تشبهه كثيرًا وتماثله في الإغراق بشرب الخمر.

ظللـــت لسنوات طويلة بعد ذلك استيقظ مرتعشة في منتصف الليل وأعجز عن مواصلة النوم حتى الصباح، تدور تلك التفاصيل المؤلمة في ذهني مرة تلو مرة وأقول لنفسي : ذات يوم، يجب أن تحاولـــي التدقـــيق فـــي صـــحة كل ما أخبرك إياه.. لكنني أعود وأتراجع وأهدأ ، فذلك لم يعد ضروريًا، لقد انقضى زمنه..

قنصل (بيرو) أمامي، يبعثر الهواء أوراق الشجر الميتة في الممرات، بحفيف يتعالى ضجيجه فأشعر بالبرد.

لا أشعر بالحقد تجاهه فيما لوكان قد كذب عليّ، ففي النهاية، كانت أكاذيبه جزءًا منه.

مـــن الخسارة ألا يكونوا يخفون إلا الفراغ، لكن الفراغ كان هـــو الشـــيء الذي جذبني إليه، غالبًا ما كانت نظرته تبدو تائهة، كنـــت أود معـــرفة ماكان يفكر فيه، أحاول أن أحزر، كنت أجده غامضًـــا، لايمكـــن فهمه، يصعب سماعه حين يفتح الباب ويدخل

غرفة ما، ويمكن أن يختفي بين لحظة وأخرى وهو يمشي بقربك، لـــم يقـــم بذلك معي أبدًا، لكنه كان كذلك مع كل أولئك الذين كنت أراهم بصحبته في المقاهي المحيطة بالفندق أو في عمله بالوكالة، حتى أنه كان محلّ تندر بينهم.

أحـــيانًا.. تخوننـــي الذاكرة، لكنني أذكر جيدًا تلك الرحلة إلى سويسرا، التي قابل خلالها نماذج بشرية غريبة في بهو ذلك الفندق فـــي رون، كنا قد عبرنا (انماس) بالسيارة قبل أن نعبر الحدود نهـــار أحد، مع هبوط الليل، كانت شوارع (انماس) مغلقة بسبب موكب جنائزي تصحبه جوقة من عازفي البوق تعبر المدينة.

انفجـــرنا بالضحك عندما عزفت الجوقة مقطوعة (عودي يا بوبـــول)، ابـــتعدت الموسيقى ثم صمتت، ولم يعد هناك أحد في الشارع.

لـــم يطلب حراس الحدود حتى جوازيّ السفر، عندها، حكى لـــي أنه قام بمحاولتين لدخول (سويسرا) عندما كان في السادسة عشرة.

تســـلّل في المرتين، لكن المحاولة الأولى فشلت عندما أمسكه الحراس السويسريين و سلّموه للشرطة الفرنسية، وبما أنه كان في نفـــس حجمـــه الآن، فقد وجدوا أنه من الأأمن أن يكبلوه بالأغلال لإعادتـــه إلى (أنماس)، وهوالأمر الذي لم يستطع نسيانه أبدًا أو تخطـــيه، كـــان في أحلامه يمشي لساعات طويلة مكبّلا بالأغلال، ويقطـــع مســـافات لا نهائية في المترو ليفتش عمّن يمتلك المفاتيح لفكّ أسره.

لاحقًـــا، ســـاعده شـــرطي في (أنماس) على الهرب، كانت المرة الثانية التي يحاول فيها اجتياز الحدود وقد نجح.

فتش طويلاً في جنيف عن قنصلية (بيرو)، دون جدوى.

نزلـــنا فـــي فندق (الرون)، في بهو الفندق كان يعقد لقاءاته التـــي غالبًا ماكانت تمتد من العصر حتى العشاء، كان يخاف من أن أشعر بالملل، يخرج من حقيبته رزمة نقود ويدفع بها في يدي طالـــبًا مني أن أنزل السوق لأشتري أحذية وساعات ومجوهرات، كنـــت أتمنع محاولة شرح أن بإمكاني البقاء في الغرفة والقراءة، كـــان يصرّ، فعندما كان في مثل سني، في أول مرة مشى فيها في جنـــيف، بهـــرته واجهات المحلات، وأضواء المدينة. رغب في شـــراء كـــل شـــيء خاصة الأحذية، فمن الممتع أن يمشي المرء مـــرتديًا حـــذاءًا جديـــدًا لا يتشرب الماء، يجب ان نستغل حياتنا القصيرة.

كـــان يتوصل إلى اقناعي، فأغادر الفندق وأعبر الجسر وأتبع طريق (الرون) لكني لم أتجرأ على دخول المحلات.

فـــي اليوم الأول، كان الضباب شديدًا فخفت أن تثلج، مشيت علـــى الرصيف بمحاذاة النهر، وشعرت أنني وحيدة في مدينة لا أعـــرفها، لاشك أن هذا كان شعوره عندما جاء إلى هنا أول مرة، في نهاية الشارع، كنت أرى المحطة، ربما من الأفضل أن استقل القطـــار المـــتجه إلـــى بـــاريس لملاقاة (ميراي ماكسيموف)، واخبارها بكل شيء..، بم كانت ستنصحني ؟

سلكت شارعًا فرعيًا صغيرًا، فوجدت دار سينما، كان الوقت مبكرا وكنت الوحيدة في الصالة أشاهد عرضًا للصور المتحركة.

أشـــرقت الشـــمس في الأيام اللاحقة فيما يشبه ما يسميه أهل باريس بالصيف الهندي.

اشتريت، مع ذلك، ساعة، وحذاء، فقد مللت من ارتداء حذائي الأزرق القديم، الذي جعلني ذلك القذر في دار الأزياء أخلعه.

استأذنته في أن أبقى في البهو بعيدة عنه خلال لقاءاته، جعلت أراقـــبه بـــتحفظ وأنـــا اتسائل عمّن يمكن أن يكونوا هؤلاء الناس المحيطيـــن بـــه، نفس الأشخاص دائمًا، أغلبهم جزائريين يحملون محـــافظ جلدية، باستثناء واحد منهم أثار انتباهي بابتسامته، وواقي المطر الأزرق الذي يرتديه.

كان يستدعيني أحيانًا لأجلس معهم في نهاية الاجتماع، اعتقد انهم كانوا يتكلمون – بصوت خافت – عن النقود، وتصرفوا معي دومًـــا بلياقة، وددت أن أعرف أكثر، لكنني لم أتدخل في شئون لا تعنيني.

فـــي المساء، كنا نقصد مطعمًا ايطاليًا للعشاء بصحبة رجلين يعملان معه في باريس، كان أحدهما بدينًا، من نفس عمر (غي)، لطيف ولاهث دائمًا، يعمل معه في الوكالة، والآخر خمسيني، أنيق جـــدًا، يـــتكلم الفرنسية بلكنة خفيفة، ذي شعر مصفف إلى الوراء، مهـــذب جداً أيضًا، لكنه يخجلني، فأحيانًا كانت نظراته ثاقبة، كان يعـــيش فـــي بـــاريس، في شقة بشارع (أرتوا) على مقربة من الفندق، يجب أن أحاول تذكر أسميهما ،

قد يشغل هذا فترات بعد الظهر الفارغة في أيامي.

تمشـيت و (غـي) عصر أحد الأيام في جنيف، دلّني على مكـان كان غالبًا ما يحتمي فيه خلال الفترة الأولى من إقامته في المديـنة، مـيدان (رون) ، عـبرنا مدخلاً ينفذ إلى حديقة كبيرة محاطـة بالبنايات، كان المكان خاليًا من البشر، في وسط الحديقة ترامت بعض المقاعد تحت ظلال الأشجار.

أول مرة جلس فيها هنا كان اليوم الذي أدرك فيه أنه لن يعثر على قنصلية (البيرو).

فـي باريس، كان يترك الضوء موقدًا خلال الليل، كان يعاني الأرق، لـم يكن يبتعد عن شارع الفندق، كنا معظم الوقت وحدنا، كـان يصـطحبني معـه بعد الظهر إلى الوكالة، حيث أجلس في زاويـة كمـا كنـت أفعل في فندق (الرون)، اتصفح مجلة في انتظاره، فيما كان يتحدث مع البدين اللاهث.

كـانوا لايتوقفون عن اجراء المكالمات الهاتفية، يحتل البدين أريكـة جلديـة، بيـنما يجلس هو على طرف المكتب، ويمرران سماعة الهاتف لبعضهما، أو يتكلم البدين وحده بينما يتناول (غي) السـماعة.. أحـيانا كـان يأتي الرجل الأنيق ذي الشعر الأسود، فيفسح له البدين مكاناً وراء المكتب.

كـان (غي) يتوارى للحظات في الغرفة الخلفية التي يحتفظ فـيها بحقائـبه وأغراضـه، ثم يعود صوبي بينما يتبادل الآخران سـماعة الهاتف، يعطيني رزمة من النقود ويبتسم، كما كان يفعل فـي جنـيف، يخبرنـي أنه ليس عليّ البقاء هنا والانتظار، فهذا

ممل.. فلأذهب إلى السوق وأشتري فساتين ومعاطف بالطبع، فقد اقترب الشتاء وأنا لا أملك حتى معطفاً..

يقــول أنني فعلاً فتاة غريبة الأطوار، طائشة، ومن الأفضل لي أن أستجيب لما يقول، بسرعة، معطف دافيء للشتاء.

عندها كنت أغادر الوكالة، وأنزل إلى شارع (فوبورج سانت أونوريه) دون أن أجرؤ على دخول المحلات كما في جنيف.. إلا أنني ذات يوم، أشتريت لنفسي واقيًا للمطر وحذاءًا جديدًا.

فــي الغــرفة مســاءًا، كان يسألني أسئلة عن طفولتي وعن عائلتــي، لكني كنت أخلط الأمور مثله بالضبط، كنت أقول لنفسي أنه لا يمكن لفتاة ببساطتي قادمة من ليون ولا تملك غير اسم واحد أن تثير فضوله.

كــان موعدنا يوم الاثنين كالعادة، كان ذلك في نوفمبر حيث يخيم الليل مبكرًا، إلا انني أعتقد أن الوقت كان لا يزال نهارًا حين وصــلت إلى شارع (فريدريك باستياد)، لاحظت وجود سيارتين ذاتــا لــون أســود، متوقفتين أمام باب الفندق، ومجموعة رجال يشبهون رجال الشرطة على الرصيف المقابل.

دخلت، كانت عاملة الاستقبال واقفة أمام مكتبها ومستندة إليه بكوعها، وأمامها يقف الجزائري ذي المشمع الأزرق الذي قابلته فــي جنــيف، تعرف عليّ بدوره، كان يبدو عليه الضيق، مازلت اتسائل حتى الآن عن ماهية دوره.

قال لي بنبرة جافة :

– لا تعذبي نفسك، لم يعد هناك أحد في الأعلى.

أردت الصعود رغم ذلك، فاعترض طريقي مكررًا :

- لا أحد في الأعلى.

لم تتحرك المرأة، و بدت عيناها وكأنهما تحدقان في الفراغ، جذبني بلطف إلى الخارج، وقال بصوت منخفض :

- ارحلـــي سريعًا، انهم لا يعرفون حتى الآن من أنت، لست حاليًا سوى فتاة شقراء مجهولة الهوية.

كانـــت الكلمات تتدافع من شفتيه، أراد أن يقول لي شيئًا آخر لكنه لم يمتلك الوقت..

وقفـــت كالبلهاء على الرصيف، عبرت الشارع ومشيت نحو المجموعة المتحلقة، سألت أحدهم عما حدث في الفندق فأجابني :

- لا أعرف عما تتحدثين يا آنسة.

كانوا يرمقونني بنظراتهم الباردة، لو بقيت إلى جانبهم سوف يكبلونني بالأغلال، ومع ذلك وددت لو أصرخ وأثير فضيحة حتى يخبرني أحدهم بالحقيقة.

مشيت في شوارع الحي دون هدى، شارع (أرتوا)، شارع (بري)، شارع (بونتيو).

مـــررت أمام الوكالة، كان الليل قد هبط، مررت مجددًا أمام الفندق، كانوا لايزالون هناك، متحلقين على الرصيف، والسيارتين فـــي مكانهمـــا.. لقد مات، أو اقتادوه مكبلاً بالأغلال.. كان يترك غرفته مضاءة في الليل.

في اليوم التالي لم أغادر غرفتي في منزل (فينوس)، أقنعت (مـــيراي ماكسيموف) أنني مريضة، كانت ستتناول العشاء مع

(والــتر)، طلبت أن أرافقها على أمل أن يعرف (والتر) شيئًا، خفـــت أن تأخذني إلى المطعم الصيني، لكن أحدهم مرّ بنا بسيارة كبيرة وأخذنا إلى حي بعيد لا أعرفه.

جلست في البار بمواجهة (ميراي ماكسيموف) و (والتر)، رأيـــت وجهي في المرآة شاحبًا كوجه غريق، لاشك أنهما لاحظا ذلــك، ســكبا لي كوبًا من النبيذ، لكن تعذر عليّ ابتلاع أي شيء، كانا يتحدثان، وناضلت لأحافظ على تركيزي في الاستماع إليهما، حاولــت ألا أنهـــار، فصرت أتعلق بكل كلمة منهما وأتابع حركة شفاههما، قال (والتر) أنه يريد عمل تحقيق عن الأشخاص الذين يختفون في باريس.. سيحاول التقاط صور خلال الليل، في مخافر الشـــرطة.. لـــم يلاحظا شيئًا.. في السجن، في المستودعات، في المشرحة.. أحسست بالغثيان، قمت مصحوبة بخوفي من الانهيار، نزلت الدرج الذي يقود إلى الحمامات، تقيأت.. لم أكن أريد العودة ثانـــية إلى الأعلى، أردت الخروج من المطعم خفية والسير وحيدة في الشوارع..

فتشت عن مخرج طواريء، كما قال الجزائري، مازلت فتاة شـــقراء مجهولة الهوية.. غالبًا مايطلقون على الفتيات اللاتي يتم انتشـــالهن مـــن مـــياه (الساون) أو (السين) صفة مجهولات الهوية، أو غير المعروفات..

أما أنا، فأتمنى أن أبقى هكذا للأبد..

- ٢ -

ولدت في (انيسي)، كنت في الثالثة من عمري عندما مات أبـــي، فانتقلت أمي للعيش عند لحّام من حيّنا، لم تكن علاقتي بها جـــيدة، كنت اقصدها وزوجها الجديد للزيارة من وقت لآخر، لكن جوًا متوترًا كان يشوب علاقتنا، اعتقد انني كنت اذكرها بذكريات ســيئة، كانـــت امرأة قاسية سريعة الغضب، وعلى عكسي، غير عاطفـــية البـــتة، كانت نوبات غضبها تخيفني عندما تصرخ بلكنة شمالية وشفاه مزبدة.

كانـــا زوجًـــا غريـــب الأطوار، هو بشعره القصيره وخديه المجوّفيـــن كـــان يشـــبه كاهـــنًا بعيون صارمة تسعى لاكتشاف خطايـــاك، ولاحظت تحوّل أمي تحت تأثيره إلى امرأة مسترجلة، ماكـــان يجمعهما لم يكن حبًا، وانما شيئًا كاللقاءات العابرة، كتلك التـــي تقـــع بيـــن جندي ومجندة من نفس الفصيل، أو بين خوري وخادمته.

من ناحية أخرى، لم ينجبا أطفالا، أكانت ماتزال تحب أبي ؟، فـــي كـــل الأحـــوال، بـــدا الحب شيئًا لا يعنيها، بل حتى يصيبها بالتقزز، وكأن مولدي جاء غلطة.

اهتمــت خالتــي بــي قلــيلاً في طفولتي، هي أيضًا لم تكن عاطفــية، كانــت تحذر الرجال، كانت تحذر كل الأ شياء بما فيها أنا، يجب أن اعترف أن علاقتنا لم تكن عميقة جدًا، وهي بدورها كأمي لم تكن تعني لي كثيرًا.

ذكــريات طفولتــي ليست جيدة ولا سيئة، اعتقد أن كل شيء كان ليتغير لو أن أبي ظل حيًا، كنت سأنسجم وإياه.

اخبرونــي أنــه كان (رأسًا محروقة*)، مضى وقت طويل حتى فهمت معنى هذه العبارة.

ألحقــت بمدرســة (سانت آن) ناحية الماركيزة عندما بلغت الخامسة، كانت خالتي تسكن في (فيريبيه دولاك)، وتعمل خادمة فــي فــيلات الأغنياء في (فيريبيه) و (تالوار)، تنظف المنازل وتتســوّق لهم وتطهو طعامهم، بدأت العمل في سن مبكرة في أحد فنادق (انيسي) قرب الكازينو، وحافظت على علاقة طيبة بمدير الفندق الذي كان ينتشلها من الضائقات المالية، كانت امرأة تعرف كيف تتدبر امرها.

في مدرسة (سانت آن)، كنت الأولى دائمًا في الفصل، حتى أن المديــرة نصحت خالتي بتسجيلي في كلية البنات لأحصل على البكالوريا، كنت ممتازة في مادة اللغة الفرنسية، لدرجة أنها كانت تردد عني دائمًا:" هذه الفتاة ستذهب بعيدًا..."

---

*tete brulee : عبارة فرنسية بمعنى (متهور).

لكـــن خالتي لم تستجب لنصائحها، سجلتني كطالبة داخلية في مدرســـة الراهــبات، في (جران بورنان) على بعد حوالي ٢٠ كيلومـــترًا من البلدة، لم تفعل هذا بهدف تلقيني المباديء السلوكية اللائقة، وانما ببساطة لتتخلص مني.

كنت في الثانية عشرة، لم تعرض عليّ أمي أبدًا أن أعيش في بيـــتها، ولا زوجها اللحام، كانت تصدمني نظراتهما الشرسة إليّ فـــي المـــرات القليلة التي أزورهما فيها، فهمت لاحقًا أنها لم تكن موجهة إليّ فقط، بل لكل النساء عمومًا.

هـــو كـــان يعتـــبر النساء الشر ذاته، وقد نجح دون شك في اقناعها بذلك، اشعر أنه كان يتمنى لو أنها كانت رجل.

لـــم اعـــرف أبدًا الحياة العائلية، وبصراحة أعتقد أنها لم تكن لتعجبنـــي، كنت استقلالية جدًا، وغالبًا ما شعرت برغبة قوية في الـــبقاء وحـــدي، ولـــم أكن أتحمل فكرة التجمع العائلي للغداء أيام الآحـــاد، الأخـــوة والأخـــوات، ابناء العمومة، الأمهات، دعوات المناولة وأعياد الميلاد، واحتفالات الكريسماس.

الشـــيء الوحـــيد الـــذي كنت سأحبه، هو أن اعيش مع أبي وحدنا، لو لم أفقده، لكان على على الأقل سيلحقني بالكلية لأحصل على البكالوريا.

كـــان النظام في المدرسة الداخلية أقسى بكثير مما كان عليه في مدرسة (سانت آن)، أقمت بعنبر نوم الفتيات الصغيرات، ثم نقلونـــي عـــندما كـــبرت إلى عنبر نوم الشابات، تطفيء الراهبة

الضـــوء عـــند التاســـعة ليلاً تاركة مصباحًا صغيرًا يضيء نورًا أزرق، كنت أفضل العتمة الكاملة.

فـــي السادسة والربع صباحًا جرس الاستيقاظ، نغتسل بسرعة أمـــام مغاسل متجاورة على طول الحائط تشبه الأحواض، التعّري كـــان ممـــنوعًا، كان علينا ستر اجسادنا عن الآخرين وعن انفسنا وكأنهـــا شـــيء مخجل، لم أفهم السبب أبدًا، ومن ناحية أخرى، لم أرد فهمه.

بعـــد الاســـتيقاظ والاغتسال، كنا نذهب إلى الكنيسة، ثم إلى قاعة الدراسة لمدة ساعة.

بعدهـــا كان الإفطار في قاعة الطعام، قهوة بالحليب بلا سكر و خبز بدون زبدة، فقط بعض المربى. من جديد قاعة الدراسة، ثم الفســـحة فـــي نحو الحادية عشرة، قاعة الدراسة، الغداء، الفسحة، الصف، الفسحة، وجبة العصر، كسرة خبز وقطعة من الشوكولاتة السوداء، دروس المساء، وعلى العشاء نأكل طبقًا واحدًا خاليًا من اللحم، الكنيسة، النوم، ثم يتكرر كل شيء في اليوم التالي.

كـــل أسبوعين، كنا نخرج مرة، بعد ظهر خميس، في نزهة حـــول القـــرية، وإلا كـــنا نبقى في المشغل للقيام بأعمال خياطة ورتق..

اقتصـــرت علاقتي الوحيدة بالعالم الخارجي على جهاز راديو صغير كنت قد استعرته من خالتي وتوجّب علي أن أخفيه، استمع الـــيه عند المساء في العنبر، وبعد الغداء خلال الفسحة، في زاوية منعزلة من الفناء.

تركّـــزت نشرات الأخبار، في شهر ابريل من عامي الخامس عشـــر حـــول احـــتمال هبوط مظليين من فرنسيي الجزائر على الأراضـــي الفرنســـية، عشت وقتها على أمل وقوع حرب أهلية، ســـيفقد الراشـــدون أي ســـيطرة لهم علينا، وسأستغل البلبلة التي ستحدث لأهرب.

لكـــن للأســـف، عادت الأمور إلى طبيعتها في خلال أسبوع واحد بالضبط.

لم يخلف أيٌ من الذين قابلتهم خلال سنوات مدرسة الراهبات أي ذكـــرى لديّ، رغم أنني منذ بلغت الرابعة عشرة من عمري، وأنا أحلم بلقاء (الحب الكبير)، لكن أحدًا خلال كل هذه السنوات لم يتمكن من جعل قلبي يدق.

مرّت تلك المرحلة في ضباب محا كل الوجوه والتفاصيل من حياتـــي، لدرجـــة أننـــي أتسائل ان كان كل ذلك مجرد حلم، حلم يـــتكرر دومًا أجد نفسي فيه مجددًا تحت الضوء الأزرق لمصباح المضجع.

كـــل أحـــد، كنـــت انتظر الباص الذي سيعيدني للمدرسة في الموقـــف أمام مركز بلدية (فيرييه دولاك)، قرب شجيرة الدلب، لا أذكـــر ســـوى مساءات الأحد الخريفية أو الشتائية، حين يكون اللـــيل قـــد هبط، استقل الباص ذي المقاعد المحجوزة بالكامل منذ (أنـــيس)، كثير من الركاب يبقون واقفين، مكتّفين في الممر بين المقـــاعد، فلاحـــون عائدون إلى قراهم بعد تمضية يوم الأحد في

(أنــيس)، جــنود في إجازة، أطفال، كلاب، أنا ايضًا كنت أظل واقفة خلف السائق.

ينطلق الباص، تدور عجلاته ببطء، في اسفل الشارع بعد أن تنعطف الطريق نحو اليمين، يظهرمواربًا، باب فيلا عائلة (تيلول) الأمريكية التي عملت خالتي لديها ذات صيف، وبمجرد أن نتوغل في طريقٍ (كول دوبلافي)، يظهر قصر (فانتون سانت برنارد) مـنعزلاً علـى قمة الجبل، كالقصور في حواديت الجنيات، بعدها نمـر من أمام مقبرة أليكس الصغيرة، ثم من أمام صروح أبطال الغليـير ومقابـرهم، قيل لي أن والدي شاركهم في المعارك ضد الألمان، اعتقد أنه كان بطلاً بدوره، رغم أنه لم يمت في الحرب، وانما بعدها بسنوات.

كـان الـباص يتوقف في ساحة القرية فأتابع الطريق وحيدة سـيرًا على الأقدام لبضع مئات من الأمتار، لم تكن أي فتاة أخرى من الدير تستقل هذا الباص، كلهن كن يعشن في القرى المجاورة، باسـتثناء (سـيلفي) التـي ظلـت صديقتي، والتي كانت تسكن (أنيس)، ثم وجدت لاحقًا عملاً في إدارة المحافظة لكن أهلها كانوا يقلونها بسيارتهم.

غالـبًا ماكانـت تتملكنـي رغبة في الهروب وأنا أسلك هذه الطـريق، كـان يكفي أن أعود أدراجي وانتظر في ساحة القرية الـباص الـذي ينطلق من جديد في التاسعة مساءًا نحو (أنيس)، أتخـذ نفس الطرق لأصل محطة (أنيس) في التاسعة والنصف، لكن ماذا بعد ؟

لـــو كنت أملك المال، لوكنت أملكه لما بقيت أصلاً في أنيس، كنـــت بمجـــرد أن أنزل من الباص سأشتري تذكرة إلى باريس، وانتظر موعد انطلاق قطار النوم.

لكننـــي لم أكن أجرؤ بعد على القيام بالقفزة الكبيرة، لذا كنت أجـــد نفســـي – عوضًـــا عن ذلك – في كل مرة في الكنيسة مع الأخريات لصلاة الأحد المسائية.

كانـــت زميلتـــي فـــي الفصل شقراء يعمل أبوها صيدليًا في (كروسيي)، اعتقد أنها كانت تعيسة مثلي في هذه المدرسة، كنت أحـــيانًا أقرضـــها الـــراديو، تكلمـــنا معًا مرة في الفناء، رغم أن الأحاديـــث الثنائـــية كانت ممنوعة، فإما أن تبقى وحدك أو ضمن مجموعـــة، كـــان مطر نوفمبر اللانهائي قد بدأ يتساقط معلنًا بدء خمسة أشهر مثلجة ستزيد إحساسي بأنني سجينة.

كانـــت فتاة (كروسيي) قد سرقت من صيدلية أبيها علبتين مـــن منوّم (ايمنوكتال)، اعطتني إحداهما شارحة لي أنه " يكفي اذا أردت الانـــتحار أن أتـــناول كل الحبوب دفعة واحدة، وأنه من الجـــيد أن احـــتفظ بالعلـــبة معـــي دائمًـــا "، " هكذا "، قالت لي، " تصبحين سيدة حياتك ومماتك "، لا يستطيع أحد أن يمسك حينها، حيث لا يعد لأي أحد أو لأي شيء أهمية. تصبحين حرة.

كان الحق معها، فقد شعرت منذ اللحظة الأولى التي احتفظت ـــيها بالايمنوكـــتال، براحة البال واللامبالاة تجاه قوانين المدرسة وتعليمات الراهبات.

ذات يـــوم، اختفـــت شـــقراء (كروسيي)، قيل أن الراهبات طردنها بعد أن وجدن في خزانتها كتبًا ممنوعة، كنت أعرف أنها تقـــرأ في عنبر النوم، على ضوء مصباح جيب صغير تحتفظ به خفية.

مـــن لحظـــتها، صـــار عليّ أن أجلس وحيدة علي المقعد في الصفّ، لكنني مازلت احتفظ بعلبة الايمنوكتال، وأحيانًا أندم لأنني حتى الآن لم أتناول حبوبها دفعة واحدة.

كنت أقضي إجازة الصيف لدى خالتي، في (فيرييه دولاك)، اســـاعدها علــــى التنظيف والتسوّق للفيلات المجاورة لقاء بعض النقود، بدوت أكبر من سنّي وأنا في الرابعة والخامسة عشرة.

كـــنا ذات يوم نعمل في فيلا يملكها محام من باريس يأتي كل صـــيف إلــــى (شافوار) لتمضية إجازته، عندما أسرّ لها بصوت منخفض :

" جمال ابنة اختك شيطاني "

كان يبتسم لي وهو واقف أمام مكتبته، بشعره الأبيض الذي تتخلله تموجات رمادية ممشطة للوراء.

جمـــال شـــيطاني، لم أكن أعرف ما يعنيه ذلك لكنه أخافني، ذات الخوف الذي شعرت به عندما قالوا لي أن والدي كان " رأسًا محروقة ".

بعض الصبية والفتيات من نفس عمري والذين كانوا يقطنون تلـــك الفـــيلات، كـــانوا يوجهـــون لي الحديث، لكنني كنت أشعر بالمســـافة بيني وبينهم، بورجوازيون وأبناء عائلات، بعضهم يأتي

من ليون أو نادرًا من باريس، وبعضهم ولدوا هنا، يرتادون مسبح سبورتنج في (أنيس) وملاعب التنس ونادي المراكب الشراعية في (ماركيزا)، يقيمون الحفلات المفاجئة، يلبسون زي التنس وصنادل الموكاسان وسترات الموضة الحديثة، في الحقيقة، لم أكن أراهم إلا من بعيد.

عملنا، في الصيف الذي بلغت فيه السادسة عشرة من عمري، في فيلا كبيرة في (تالوار)، حيث كنا، خالتي وأنا، نخدم مساءًا على طاولة العشاء.

كان السيد وزوجته يستقبلان الكثير من الضيوف، ويذهبا بعد الظهر للعب الجولف في (اكس ليبان) ن كانت الزرجة شقراء مميزة، وكان لديهما أربعة أولاد، ابنتين تقاربانني في السن، وابنين احدهما في التاسعة عشرة من عمره والآخر في الخامسة والعشرين، يؤدي خدمته العسكرية في الجزائر، وقد جاء في ذلك الصيف ليقضي اجازته الطويلة معهم.

ابيض البشرة، ذي شعر اشقر ووجه كانت صديقتي (سيلفي) ستجده رومانسيًا، تتخذ ملامحه أحيانًا صورة الحالم أو المهموم، لكنه يحدث أخيه وأختيه دومًا بنبرة متسلطة، يوقظهم في الصباح الباكر للعب التنس، أو للذهاب إلى نادي المراكب الشراعية في (ماركيزا).

كما كان يتبارى مع اخيه في حديقة الفيلا في لعبة الضغط، والرابح هو من يستمر وقتًا أطول في وضعية أفقية على الأرض وهو يثني ويمدّ يديه في حركة متواصلة.

كنـــت أرتب سريره وأنظف غرفته حين لاحظت وجود كتاب علـــى الكومـــود بجوار سريره، مازلت اذكر عنوانه (مع مرور الزمن)، وعلى الحائط، بجوار السرير، صورة كبيرة لأمه، بينما على المكتب، خنجر في غمد من الجلد.

شـــاهدته عدة مرات يلعب التنس، وفي كل مرة كان مع فتاة مخـــتلفة، كـــان حسبما لاحظت، شديد التعلق بأمه، وكان المفضل لديها.

كـــان يعاملني باحتقار، ذات مساء، طلب مني بنبرة جافة، أن أقـــدم له عصـــير برتقال، ثم طلب بنبرة تسلّم ببداهة الطلب رغم وديّـــتها أن ألمّـــع حذائه، وفي يوم آخر قال لي : " لورأيت ماما اخـــبريها أنني سأقضي الليلة في جنيف " كانت تلك المرة الأولى التـــي أسمع فيها أحدًا يقول " ماما " بهذه الطريقة، فبالنسبة لي، لو كنت سأذكر أمي في حديث مع أحد لقلت " أمي " بكل بساطة.

ذات مساء، حوالي الساعة التاسعة، وجدتني وحدي وإياه في الفيلا، كنت في المطبخ، وقد انتهيت لتوي من غسل الأطباق، قال لي : " أودّ أن تقدمي لي كأسًا من الويسكي في الصالون "..

حضّـــرت الصينية، وضعت فوقها الزجاجة ومياه (بيريه) ومكعبات الثلج وكأس.

كان نور المصباح في الصالون يلقي ظلالاً، كان جالسًا على الأريكـــة، وضعت الصينية في وسط الطاولة المنخفضة، شعرت بنظرته، بدا مرتبكًا، خجلاً تقريبًا :

– كم عمرك ؟

سألني فجأة، أجبت بأنني في السادسة عشرة، خيّم الصمت.

- هل لديك صديق ؟

أجبت بالنفي، رشف جرعة ويسكي، ظللت واقفة..

- عندما كنت في مثل سنك، كان لديّ الكثير من الصديقات..

قالهــا بلهجة متغطرسة، وكأنه ينوي تلقيني محاضرة، أردت مغادرة الغرفة، قال بصوت جاف :

- أتعرفين أنك فتاة جميلة ؟

ثم بدا عليه الارتباك، وقال بسرعة خاطفة :

- أتودّين الصعود إلى غرفتي ؟

لا أعــرف لمــاذا صعدت، أضاء المصباح، وأجلسني على طرف السرير ضاغطًا على كتفيّ، ثم قبّلني، قبلة طويلة، مدرسية كــتلك التــي كان يقبلني اياها الصبية وأنا في الثالثة عشرة، وهم يراقــبون عقارب ساعاتهم عندما كنا نلعب لعبة (القبلة التي تدوم أطول).

تعجبــت كيف يقبّلني هكذا وهو في هذه السنّ، رماني بدفعة مفاجئة على الفراش وتمدّد فوقي، قبّلني مجددًا في شفتيٍ، ومجدّدًا نفس نوع القبلة، تلك التي " تدوم أطول "، ابتعد عني قليلاً.

كــنا ممدين، هناك، جنبًا إلى جنب، لم أجرؤ على النهوض، أشــعل ســيجارة، بــدا عصبيًّا، عرض عليّ أن أدخن فرفضت، سألني:

- هل مازلت فتاة ؟

ماذا يعني أن أكون مازلت فتاة ؟ لم أرد.

- أقصد.. هل أنت عذراء ؟

سـألني هذا السؤال بأسلوب بارد ومصرّ كما لو كان طبيبًا، أجبته بأنني لا أعرف، وأدرت وجهي فوقعت عيناي على صورة أمه.

تمـدد فوقـي، أحسسـت بالاختـناق، أخذ يفرك جسده على جسـدي، ولكـن، لأنه لم يكن قد خلع ثيابه فلم يحدث شيء، من جديـد، " القـبلة التـي تدوم أطول" والتي لا تؤتي مفعولاً معي، أحسسـت أنه بدوره لا يأخذها على محمل الجد، بينما كان السؤال الـذي طـرحه علي بأسلوب طبيب وربما اسلوب كاهن لا يزال يدور في ذهني.

تساءلت إن كان يتصرف هكذا مع الفتيات الأخريات، اللواتي يلعـب معهـن التـنس، مـن المؤكد أنه يتصرف معهن بأسلوب مخـتلف، كان لا يزال رابضًا بوزنه فوقي، يحاول أن يقبّلني في عنقي بإصرار شديد، لكنه بدا وكأنه يبذل مجهودًا شاقًا عليه، وبدا وكأنه كان يجبر نفسه.

ابـتعد من جديد، فتسائلت ان كان يجبّ عليّ أن أبقى، لم أعد أعرف لماذا أنا هنا...

في الصورة، كانت أمه ترقبنا.

- أتودين سماع نص جميل جدًا؟

فاجأني ذلك السؤال. مد ذراعه نحو الطاولة المحاذية للسرير و تناول كتابًا إسمه:"بينما يمر الزمان".

- انه جميل جدًا، المقطع بعنوان (ليلة توليد*).

بـــدأ يقرأ، بذلك الصوت الجدّي الذي يليق بطبيب أو بكاهن، وصف ليلة حب أمضاها عاشقان في غرفة فندق في (توليد) :

" كانـــا عاريـــان أمام بعضهما، في براءة الحديقة، بينما الليل الاسباني في الخارج... "

تابع القراءة :

" جسد شاب واقف أمام فريسته.. معركة أخوية... "

انفجـــرت في الضحك.. كان يحدق بي بذهول، وضع الكتاب بينـــنا، فجـــأة اكتسبت نظرته قسوة شديدة، وبدت شفتاه أرق مما كانت عليه قبل قليل، لم استطع أن أتوقف عن الضحك.

- اغربي عن وجهي ايتها الخسيسة الصغيرة.

كانـــت كلمة مثيرة للسخرية، لم يعد أحد يستخدمها، لكنها في كل الأحوال كانت اهانة.

نهضـــت ووقفت لبرهة أمام الباب، صوبت نظري نحو عينيه مباشرة، وفشل في جعلي اخفضه، ازدادت شفتاه رقة، وكأنه على وشك أن يشتمني بصوت لاذع كسوط، أو بصوت امرأة كأمه، أو أن يفحّ كأفعى.

خـــلال الاجـــازة، كنت استقل الحافلة المتجهة إلى (أنيسي) مرتين في الاسبوع، عندما تعفيني خالتي خلال العصر أو المساء من العمل معها.

---

* اسم منطقة.

أتوقف عند شجيرة الدلب ذاتها، لكن من الناحية الأخرى من الطريق قبل الكنيسة.

كم هو ممتع أن أسلك الاتجاه المعاكس لاتجاه المدرسة، لم أكن أواصل الطريق حتى المحطة، بل كنت اترجل عند الكازينو، اقابل (سيلفي) صديقتي من المدرسة، نلتقي في مقهى اسمه (لاريجان)، على اليمين بعد شارع (باكييه).

تكبرني (سيلفي) بسنتين، تركت المدرسة بعد عطلة الكريسماس، وبما أنها كانت تتقن الضرب على الآلة الكاتبة، وجدت عملاً متواضعًا في مركز المحافظة.

كنت أقضي الليل عندها في الصيف، بعد أن نحضر فيلم الثامنة والنصف في السينما، ولم تكن خالتي تمانع بشرط أن أكون في (فيريبيه دي لاك) للعمل في السابعة من صباح اليوم التالي، فقد كان هذا هو الشيء الوحيد الذي تهتم به.

كنا نتسكع في الشوارع والمتاجر، وننزل إلى شاطيء الماركيزة، نتناول كأسًا عند السادسة مساءًا في ساحة (التافرن) تحت السقف المنحني كالقناطر، أو ساحة مقهى الكازينو، كان ألذ شيء في هذا الوقت هو احساسي أن السهرة ستمتد حتى منتصف الليل، كان الكثير من الناس يقصدون (التافرن) عند العصر، شباب وبنات يفوقوننا عمرًا، عائدين لتوهم من (السبورتنج)، يطلبون المقبلات والكوكتيلات المعقدة.

كـــان بعضـــهم يصفون سياراتهم المكشوفة بمحاذاة الساحة، ويحتســـون (الويسكي) أو عصير البرتقال، جالسين على مقدمة سياراتهم.

كـــان الشـــباب الذين يحيطوننا يبتسمون لنا، كانت (سيلفي) شـــقراء بقدر ماكنت أنا سمراء، لكن عيوننا كانت من لون واحد: الأزرق، وكما يبدو، كان لدي بالإضافة إلى ذلك " جمال شيطاني "، لكـــن ذلـــك لم يمنحني ثقة بالنفس، كانوا يدعوننا للانضمام إلى طاولاتهم، يكبروننا بخمسة، عشرة، وأحياناً عشرين سنة.

انـــتهى بـــي الأمـــر بالـــتعرف إلـــيهم... (جاك)، الملقب بالماركـــيز، أشقر طويل يلبس نظارة سوداء، وسترات خضراء، ومحب للمراهنات الخطيرة.

(بيـــير فورنيـــيه)، الـــذي ينزه قطة اثيوبية برسن، ملوّحًا بعصاه المزخرفة.

(دوميـــنيك) السمراء، وشعورها الدائم بالصقيع كلما عبرت تحـــت ســـقف القـــناطر، وســـترتها الجلديـــة السوداء ذات الياقة المـــرفوعة دائمًـــا، كـــان يقـــال أنها تعيش حياة " غامضة " في جنيف...

(زازيه)، (بامنبان)، (لافوريل)، (روزيه) الشقراء.

(كلـــود بران) و (باولو هيرفيو) : اصطحبانا ذات مساء إلى السينما لمشاهدة " الأمريكية الجميلة "، فيلم يعشقانه ويحفظانه عـــن ظهـــر قلب، لأنهما – حسبما قالا – شاهداه ثلاثة وخمسين مرة..

وآخـــرون كثيرون لم أعد اذكر اسمائهم، لكننا كنا منعزلتان قلـــيلاً أنـــا و سيلفي، فغالبً ماكنا ننزوي وحدنا، تحكي لي سيلفي عـــن مشاريعها، لم تكن تريد أن تبقى في هذا المكان، كانت تنوي أن تجـــد عملاً في باريس، حيث يدير ابن عم ابيها مقهى في حي (فوجيرار)، كانت كلمة (فوجيرار) تجعلنا نحلم..

ماذا عني ؟ كانت تسألني ان كنت انوي البقاء لمدة أطول في المدرسة، كنت آمل ألا أفعل.

وددت أن اعمل مثلها في المحافظة كي أتخلص من اعتمادي الكلـــي علـــى خالتي. كنا نرسم خططًا ومشاريع. تدبر (سيلفي) أمرها في السنة المقبلة للذهاب إلى باريس، نستأجر غرفة ثم ألحق بها إلى حي (فوجيرار).

كـــان بإمكانـــنا أن نمضي تلك السهرات مع أولئك الذين كنا نصـــادفهم في (التافرن)، فيدعوننا إلى العشاء في المطاعم، وقد يصـــطحبوننا حتى إلى الملاهي الليلية في جنيف، لكننا كنا نفضل البقاء معًا وحدنا.

كانـــت (سيلفي) تفوقني اتزانًا، يقتصر حلمها على الرحيل وايجـــاد عمـــل جيد في باريس، وكنت أشرح لها أنني مثلها أود الرحيل، لكن لملاقاة

" الحـــب الكبـــير "، فهـــنا، لـــن أعرفه أبدًا.. كان هذا يثير ضحكها.

فـــي التاســـعة مســـاءًا، كـــنا نذهب إلى السينما، تارة نقصد (الســـبلانديد)، وتـــارة أخرى (هوليوود) في شارع (سوميه)،

وأحـيانًا سـينما (الكازيـنو) و (فوكس) قرب التافرن حيث التذاكر أغلى سعرًا، خلال الاستراحة، كنا نشتري الآيس كريم.

نضع دراجتينا قرب شجرة في أول نقطة من شارع (باكييه)، عـند منتصف الليل يخيم الهدوء، نعود إلى بيت (سيلفي) ونحن نقود الدراجتين بتمهل متجاورتين بمحاذاة البحيرة، تحت مظلة من ورق الأشجار في شارع (البينيي).

بـدا ذلك الأحد، في نهاية سبتمبر وبداية العام الدراسي، بينما انـتظر الـباص الـذي سيعيدني إلى المدرسة، ذلك الأحد بدا لي حزينًا.

كان عليّ أن استقل الحافلة مبكرًا عن المعتاد، في الرابعة بعد الظهر لأصل هناك قبل صلاة الغروب.

في تلك الليلة، لم استطع النوم في العنبر، كنت قد فقدت عادة الـنوم مبكرًا، لم أشعر بالنعاس إلا بحلول الثانية أو الثالثة فجرًا، لكننـي كنت استيقظ منتفضة من حين لآخر دون أن أدرك أين أنا تحت هذه المصابيح الزرقاء.

فـي الصف، لم تأخذ أية فتاة مكان شقراء (كروسيي) التي كانـت تجلس جواري، لكنني كنت أفضل أن يبقى المكان فارغاً. مـن جديد، عدت أحمل في جيبي (الإيمنوكتال)، كنت قد خبأته خلال شهري الإجازة في قعر درج عند خالتي.

الآن، كل شي يبدأ من جديد.

ثم أصابني تحول عجيب، اكتشفت خلال شهر اكتوبر أنني لم أعـد في حاجة لعلبة (الايمنوكتال) لتزودني بالشجاعة، رضخت

للـــنظام، قاعة الطعام، عنبر النوم، صالة الدرس، المشغل، الباحة، قاعـــة الطعـــام، الكنيسة، لكن هذا لم يعد يعنيني، كنت في مكان آخر.

وكأنني كنت استمع إلى اسطوانة قديمة، أقوم بمجهود صغير لاســتمع مجــددًا إلـــى الموســيقى القديمة، لكن قريبًا، كل شيء سينتهي.

أحســت الراهـــبات بهــذا التغــيّر، كنت ابتسم لهن لكن لا أســمعهن. أنســى القوانيـــن، ذات صباح، تعريت تمامًا لأغتسل واجــتزت عنــبر الــنوم وأنـــا على هذه الحال حتى وصلت إلى ســـريري، تمددت للحظة، عارية على الفراش، لو كان معي علبة سجائر الآن لكنت دخنت سيجارة وأنا ممددة أتأمل السقف.

الراهبات والطالبات حدقن بي بذهول، بينما شردت بعيدًا.

كنت ابتسم، بينما توبّخني المديرة، حتى قالت لي :

- كأنك لست معي.. هل تسمعينني ؟

اعــتقدت انها ستهزني من كتفي لتوقظني.. كنت بعيدة جدًا.. لم أعد أسمعها.

خـــلال عطلـــة عيد جميع القديسين، ابتعدت أكثر فأكثر عما كانت حياتي عليه في المدرسة.

شـــعرت أن التي عادت إلى هناك في بداية العام الدراسي لم تكن أنا، ربما توأمي.

كنـــت انـــتظر (ســـيلفي) بعد الظهر، أمام مبنى المحافظة. نذهـــب إلى (ريغان) حيث نتناول السندوتشات، ونخطط مجددًا

للمستقبل، نحلم بفوجيرار، تستغرب (سيلفي) من كوني لا أحسب حسابًا للمدرسة خلال التخطيط لمشاريعي، فلا أجرؤ على أن أقول لها أنني غادرتها معنويًا بالفعل.

أرافقهـا عند الساعة الثانية حتى مبنى المحافظة، ونتفق على اللقـاء مجـددًا فـي المساء لندخل السينما كعادتنا في الصيف، ثم أجدني أمشي لوحدي في شارع (ألبينيي) لا أعرف كيف أمضي الوقـت، ففـي ماعدا (سيلفي)، لم يكن لدي أحد ألجأ إليه، فكنت أفكر في أبي.

أحد الأشخاص في (أنيسي) كان يعرفه جيدًا، اسمه (بوب بـرون) يدير المقهى المقابل لمبنى البريد، رأيته مرة واحدة في حياتـي عندما كنت في الثانية عشرة من عمري، كان الطبيب قد حوّلنـي إلى قسم الطوارىء بالمستشفى بسبب نوبة زائدة دودية، أجروا لي جراحة وأبقوني هناك أسبوعًا.

يـوم مغادرتي المستشفى، جاء (بوب برون) هذا وكان في منـتهى اللطـف معي، لاحظت أنه وقّع بعض الأوراق للمستشفى ودفع نقودًا.

لاحقًا، فهمت أن أمي وزوجها، بدافع البخل، طلبا من (بوب بـرون) أن يدفـع للمستشـفى، شعرت بخجل شديد منهما ومن نفسي.

بقلـب تسـارعت دقاته، قصدت شارع (الرويال) ثانية يوم الجمعة عصر يوم عيد جميع القديسين.

مشيت بخطوات مترددة أمام مكتب البريد ثم اتخذت القرار، كان وقت يقلّ فيه عادة عدد الرواد، كان المقهى خاليًا فيما عداه، ذلك الرجل المدعو (بوب برون)، وراء البار رجل مربوع القامة، عريض الوجه، أصهب الشعر.

لم يتغير منذ رأيته وأنا في الثانية عشرة، كان يقرأ الجريدة. دنوت منه.

– مدموازيل.

وحوّل رأسه عن الصحيفة ونظر إلي، لكنه بدا وكأنه لا يراني.

قلت له : " أنا ابنة... "

لم استطع لفظ اسم أبي، خفت فجأة من أن لا يتذكره.

عقد حاجبيه وتأملني جيدًا هذه المرة، قال :

– ابنة لوسيان ؟

تأملنا بعضنا للحظة في صمت. شعرت أنني سأنفجر في البكاء. لكنه قال لي وكأنني زبونة عادية :

– ماذا تودّين أن تشربي ؟

هدأت. سكب كأسين من الكونياك دون أن يسألني رأيي.

في شارع (رويال)، كان رأسي يدور بسبب الكونياك والكلام الذي قاله لي عن أبي.

متهوّر. كان فتى جامحًا وهو في العشرين. بقي هكذا خلال الحرب. مناضل. ثم فشل بعدها في التأقلم. لم تكن الحياة الهادئة

تســتهويه. تهريــب ذهب على الحدود السويسرية. نساء. نوبات اكتئاب. يكرر دائمًا القاء نفس القصيدة : اتذكر الأيام الخوالي...

كــان مــن عــادة أبــيك، كلما صافحنا، أن يتسائل متندّرًا : أمازالــت خمسة أصابع ؟.. كما كانت هناك أيضًا مرحلة كاراج (الباليميت)..

كانت كلماته متدافعة، ولم أستطع معرفة المزيد منه، سوى أن أبــي قــد مشي في نفس الشوارع التي أمشي فيها الآن. لعله هو أيضًا تناول كأسًا في ساحة " التافرن " وذهب إلى سينما (فوكس).

خــيّل إليّ، وأنا أجتاز شارع (رويال) أنني أمشي في ظله. أمي وخالتي لم تتكلما معي عنه أبدًا، وكأنما أرادتا نسيانه، أو كأنه كان بالفعل بقعة ظل كبيرة.

والآن فهمــت، أنني بالنسبة لهما، كنت جزءًا من هذا الظل، لهــذا كانتا تعاملانني بلامبالاة، وترقبانني دومًا بارتياب. لم تكونا تحبانني، ولم أكن بدوري أحبهما. هكذا كنا متعادلات.

لــم أنتــبه إلى أنني وصلت شارع (ألبينيي) متجاوزة مبنى المحافظة. كنت مازلت أمشي حين بدأت تمطر..

" أتذكر الأيام الخوالي "..، عليّ أن أحفظ هذه القصيدة.

اتفقــت و (سيلفي) على اللقاء في (الريغان) كالعادة، يوم الاثنين التالي لعيد جميع القديسين.

أردت أن احدثها عن أبي، ولكن كالعادة، خذلتني الكلمات.

عــندما التقينا في الليلة السابقة، ونحن في (باكييه)، وأمامنا أنــاس يتــنزهون مع أطفالهم وكلابهم، مرتديين ثياب يوم الأحد،

شعرت برغبة في أن أبوح لها بكل مايثقل صدري، لكنني لزمت الصمت وأنا أفكر في أنه لابد أن يكون من بين كل هؤلاء البشر من عرف أبي.

ذهبنا في المساء إلى السينما، لكنني عجزت عن متابعة الفيلم. كان يجب أن أعود إلى مدرسة الراهبات، وهذا الاحتمال كان، لأول مرة، يثير لدي الرغبة في الضحك. كان الأمر وكأن أحدًا ما يجبرني على ارتداء الثياب التي كنت أرتديها وأنا طفلة.

كنت كل ثلاثة أيام أشعر أنني كبرت عشر سنوات.

مع هبوط المساء، كنت وحيدة انتظر الحافلة أمام شجيرة الدلب، كنت تسائلت خلال النهار إن كانت ستثلج.

نفس الظواهر : الثلج، عيد جميع القديسين، الأوراق الميتة، زخات المطر المفاجئة في مارس... كلها تعود في نفس المواعيد، الشتاء على الأبواب، سنشعر مجددًا بالصقيع في عنبر الموت، سنشعر به لدرجة أننا لن نخلع ثيابنا أبدًا، ولن نرغب بالاغتسال بالمياه الباردة، وسنمضي أوقات الراحة في الباحة المسقوفة خوفًا من الثلج، الباحة التي يوجد في آخرها صف من الحمامات ذات الأبواب الخربة التي لا تغلق، ولن استطيع أن لأحد أن كل ذلك لم يعد له معنى بالنسبة لي، لو كان أبي موجودًا لفهمني على الأقل.

أحسست بظله، لم أعد أعرف لماذا انتظر أمام شجيرة الدلب. شعرت برغبة في الضحك. انسان متهور. نوبات اكتئاب. اجتزت الشارع.

توقفت الحافلة أمام شجيرة الدلب. ربما كان السائق ينتظرني، لكن لم يكن هناك أحد. كنت على الرصيف المقابل أرى من خلال النوافذ الزجاجية رؤوس الركاب الجالسين، والواقفين بين المقاعد.

بدا عدد الركاب وكأنه أكثر من المعتاد. انغلق الباب وانطلقت الحافلة بصوت محركها المتقطع، ستمر أمام فيلا عائلة (تيلول)، (قصـــر فانـــتون سانت برنارد)، مدافن (أليكس). دائمًا نفس الطريق.

اســتقليت الحافلــة الأخرى، التي تسلك الاتجاه المعاكس إلى (أنيســي) وتــتوقف أمام الكنيسة. لم يكن فيها غير ثلاثة ركاب يرتدون زيًا موحدًا، ربما كانوا جنودًا عائدين إلى ثكناتهم كما كان على أن أعود إلى مدرستي. يتكلمون بصوت عال، اعتقدت لوهلة أنهم ينوون مضايقتي.

انتابتنــي نوبــة هلــع بمجــرد أن اجتازت الحافلة منعطف (الشافوار) وسارت على الخط الأيمن، بمحاذاة البحيرة. تساءلت عمّــا يمكن أن أفعله في (أنيسي). لم يكن معي نقود. نزلت في محطة الكازينو.

لا أحــد. ورائي شارع (ألبينيي) يبدو مهجورًا بشجره الذي تعــرّى من أوراقه. بدا تحت ضوء عواميد الإنارة الباهت، وكأنه يهرب إلى مالانهاية.

كــان مقهــى الكازيــنو مغلقًا، لكن ضوءًا يلمع وراء النافذة الزجاجــية فــي الطــابق الأول، حيث بدت أخيلة مجتمعة حول طاولــة. الــنادي الذي تلعب فيه البريدج النساء اللواتي نعمل في

فيلاتهـــن. مدخـــل السينما أيضًا كان مضاءًا أيضًا. توقف المطر. الشـــارع يخلـــو من أي سيارة. صمت مطبق. في ماعدا الأخيلة وراء الـــنافذة الزجاجـــية، بدا الأمر وكأنه لم يبق سواي في هذه المدينة.

اجتاحنـــي احساس بالفراغ وعادت نوبة الهلع. كنت وحدي، دون مـــلاذ، في هذه المدينة الميتة. لم أجرؤ على أن ألجأ لسيلفي. فمـــن المؤكد أن أهلها بالمنزل الآن، وسيكون عليّ أن أشرح لهم موقفـــي. لا أريـــد أن أسبب لها أي احراج. ربما استيقظ فجأة من هذا الحلم، لكن أين سأجد نفسي ؟ في عنبر النوم بالمدرسة ؟

تابعـــت الســـير فـــي شـــارع (رويال)، آملة أن أجد ذلك الـــ (بوب برون)، صديق والدي، في مقهاه.

ســـأطلب منه أن يساعدني. كنت أمشي بسرعة محاولة ضبط تنفســـي. لم يكن الهلع قد فارقني بعد، شارع البريد، المقهى مقفل. وأنا اسمع صدى خطواتي علي الرصيف.

لـــم يكـــن الظلام قد حل بالكامل بعد، و كانت واجهة المكتبة مضـــاءة. وكذلك مدخل فندق (انجلترا). وصلت إلى آخر شارع (باكيـــيه)، عـــند " التافرن ". دخلت تحت سقف القناطر. مدخل فوكس كان مضاءًا بدوره، وكانت امرأة تجلس خلف شباك التذاكر الزجاجـــي. كنت أمشي على غير هدى. شعرت بدوخة. استدرت يمينًا وأنا أتبع القناطر. أصبح صدى خطواتي أعلى مما كان عليه فـــي شـــارع (رويال). استدرت وعدت أدراجي فمررت مجددًا أمام " التافرن ". نظرت خلف الزجاج. كانت الصالة خالية إلا من

شـــابين وفتاة يجلسون حول طاولة في نهاية المقهى. تعرفت على الفـــتاة : (غابيل)، فتاة شقراء كانت زميلتي في الفصل بمدرسة (ســـانت آن). كانت حينذاك تضع الماكياج والآن هي تعمل في محل يبيع العطور في شارع (رويال).

دخلت متجهة نحو طاولتهم.

تفحصـــتني (غابيل) والشابان بنظرات قلقة. من المؤكد أن شكلي كان غريبًا، اذ أن أحد الشابين سألني :

– هل انت على مايرام ؟

بهرت بصري أضواء النيون الممتدة على طول الحائط، بدت وجوههـــم مشوشة. أخذني أحد الشابين من ذراعي وأجلسني على المقعد، إلى جانب (غابيل).

– كأس من الكونياك وستشعرين بتحسن.

أخـــذت أرتشـــف الكونـــياك علـــى مهل وفعلاً بدأت الأمور تتحســـن. اعتدت على النيون وبد كل شيء واضحًا حولي، أوضح حـــتى مـــن المعـــتاد، وكأنني في فيلم صورته شديدة النقاء. حتى صدى أصواتهم، بدا أقوى.

– هل تشعرين بتحسن ؟

كـــان يبتســـم لـــي. (غابيل) والشاب الآخر ابتسما أيضًا. تذكـــرتهما، ذلك الذي أجلسني اسمه (لافون)، اسمر في الخامسة والثلاثيـــن تقريبًا، مستدير الوجه دائم الضحك والكلام في سهرات (تافـــرن) الصيفية، يقدّم المقبّلات للآخرين الذين يقربون مابين

طـــاولاتهم ليستمعوا إليه وهو يتباهى بنفسه. كان يبيع الأقمشة بين (ليون) و (سويسرا).

الآخر أيضًا كان من رواد (تافرن) الصيفيين، اسمر نحيف يصـــغر (لافون) قليلاً، كان اسمه (اورسيني). يقال أنه يعيش فـــي (جنيف)، لكن أحدًا لا يعرف عنه الكثير، سألتني (غاييل) عمّـــا أفعلـــه هنا بمفردي، فقلت لهم أنني لم أعد إلى المدرسة لان الحافلة فاتتني.

– أمازلت في المدرسة وأنت في هذا العمر ؟

سألني (لافون) ولم يبد (أورسيني) أقل منه دهشة.

– كم تظننان عمرنا ؟.. سألت (غاييل).

– عشرون، قال (أورسيني).

– هي مثلي في السادسة عشرة، قالت (غاييل).

– انتـــباه، قـــال (لافون) محركًا سبابته في الهواء بحركة جدّيـــة، لا مـــزيد مـــن المـــزاح، هـــذا المساء أنتما في الواحدة والعشرين.. أنتما راشدتان.

بـــالفعل، كـــان يبدو علينا، (غاييل) و أنا، أننا في الواحدة والعشرين.

– سنوصلك غدًا صباحًا إلى المدرسة. قال أورسيني.

تساءلت في نفسي : لماذا في الغد ؟

– بالطـــبع، قالـــت (غايـــيل). ليس شيئًا خطيرًا أن تفوتني الحافلة.

كانت متبرجة كالعادة، بالكحل وأحمر الشفاه، وتضع باروكة سمراء خصلاتها متوسطة الطول، وكأنها خرجت لتوّها من عند الكوافير. أظافرها طويلة مطلية بالأحمر، ماعدا ظفر سبابتها اليمنى، المقصوص عن آخره. كنت أفضل لو صادفت (سيلفي)، لكن (سيلفي) تعود إلى منزلها مبكرًا.

– هل تودّين تناول العشاء معنا ؟ سألني (أورسيني).

كنت كالمخدّرة. قمت ومشيت معهم تحت سقف القناطر وكأنني في حلم. كان ذلك سهلاً، تركت نفسي انساب.

كانت السيارة متوقفة على ناصية شارع البحيرة وبدا لي منظرها غريبًا، وكأنها السيارة الوحيدة في المدينة.

– اشعر بكسل تجاه المشي. قال (لافون).

جلست (غابيل) إلى جانبه في المقعد الأمامي. وانحشرنا في الخلف أنا و (أورسيني) بجوار حقيبة جلدية كانت تحتل المقعد الخلفي.

أحاط كتفي بذراعه. انطلق (لافون): انفجرت في الضحك. كان ذلك لا شك بسبب الكونياك، وبسبب الهلع الذي انتابني منذ قليل والذي قد يعاودني لاحقًا. كان عليّ ألا أفكر به وأن أدع أعصابي تهدأ.

لم أعد أعرف حتى لماذا أنا في هذه السيارة. كان مطعم (اوبرج سافوا) خاليًا تمامًا كالتافرن. جلب لنا النادل قائمة الطعام. لم أكن جائعة. كثيرًا ما مررت أمام هذا المطعم وأنا

اجــتاز مــيدان (سانت فرانسوا) لكنني لم أتخيل أبدًا أنني ذات مساء...

اعتقدت أن (أوبرج سافوا) مخصص للأغنياء، أولئك الذين يقطنون الفيلات التي نعمل فيها، خالتي وأنا.

اختار كل منهما طبقه. (غابيل) أيضًا. استغربت جسارتها، فقد طلبت وجبة كبدة الأوز وطبقًا من المحار.

أردت أن أطلــب مثلها لكن قلبي لم يطعني، سألني (لافون) إن كنت أفضل اللحم.

- تبدين شاحبة جدًا، يجب أن تتغذّي.

كان ينظر لي بعطف، هل كان عطفًا صادقًا ؟

- لن ترفضي العشاء، قالت (غابيل)، فهذا ليس من اللياقة.

كلّمتني بنبرة جدّية، وكأنها قد تلقّت فعلاً تربية راقية.

- أتعــرفان بعضكما منذ زمن ؟ سأل (لافون)، وكأنه يقرأ أفكاري.

- كنا في المدرسة معًا، قالت (غابيل).

- يــبدو أنكــم تتعلمون أشياء غريبة في تلك المدرسة. قال (أورسيني) بابتسامة لطيفة لكن كأنها تخفي شيئًا.

رضــخت لإصرارهم فطلبت سلطة فاكهة وآيس كريم. طلب (لافــون) شــمبانيا. كنــت الوحــيدة التي لم تشرب. في ميدان (سانت فرانسوا)، خفت أن يتركوني وحيدة. أحاط (أورسيني) كتفي بذراعه فهدأت. كنت على استعداد لأن أتبعهم لأي مكان.

جلســنا فــي السيارة بنفس الترتيب السابق. التفتت (غابيل) نحوي قائلة :

- لا تقلقــي بالنسبة للمدرسة. مازال أمامنا الليل بطوله.. أنا أيضًا لدي عمل في الثامنة صباحًا.

انطلــق (لافون). أرادوا الذهاب إلى (سينترا) في شارع (فوغــلاس). كانت يد (أورسيني) تضغط على كتفي. لا أحد. ولاحتى سيارة. كان نور سينما الكازينو مطفئًا وكذلك نافذة الطابق الأول الزجاجية.

عــندما رأيــت شارع (ألبيني) المهجور الممتد تحت ضوء المصابيح أصابني الهلع مجددًا.

شــارع (فوغــلاس) كان معتمًا. لمحت ضوء (السينترا) الأحمــر الخافــت. انتفض الرجل الجالس خلف البار عند دخولنا وكأنه كان مخدرًا.

- كنا على وشك الإغلاق.

- كمــا ترى. قال (لافون). هناك دائمًا مفاجئات جيدة في اللحظة الأخيرة.

جلســنا إلى احدى الطاولات. رغبت في شرب شيء لتهدئة أعصابي.

سألت إن كان يمكنني أن أطلب كأسًا من الويسكي.

مررت (غابيل) يدها على شعري بحركة أرادتها عطوفة.

- اذا، أنــت أيضًــا بــدأت بذلك ؟ عليك أن تشربيه مخلوطًا بالصودا..

شاركت الآخرين نخبًا، وجرعت جرعة كبيرة. كان مذاقه مرًّا، لكن هلعي بدأ يتضائل. لم نعد بحاجة إلى التحدث، فقد وضع البارمان اسطوانة موسيقى. أراحت (غاييل) خدّها على كتف (لافون) وغمزتني لأفعل نفس الشيء مع (أورسيني). كنت مستعدة لأي شيء يبعد احساسي بالهلع. وقع بصري على لافتة معلقة على الحائط : (حماية القاصرين من السكر في الأماكن العامة). رغبت في الضحك. من حماني أنا ؟ اختلط كل شيء في رأسي.

الشاب في فيلا (تالوار) ممدّد على فراشه يقرأ لي (ليلة توليد)، وصورة (ماما) كما كان يناديها معلقة على جدار غرفته. أمي أنا لم تحمني. المرّة الوحيدة التي أتت فيها لتصطحبني من المدرسة، جاءت في الرابعة بعد الظهر بدلاً من السابعة مساءًا لتتخلّص منّي قبل الليل.

كنت كل يوم أحد، أتزود بقالبين من الشيكولاتة السوداء لأننا كنا نموت من الجوع في المدرسة. ذلك الأحد، طلبت أمي من زوجها التوقّف بالسيارة أمام مخبز ودخلنا نحن الاثنتين لنشتري الشوكولا، ولكن عندما وصلنا إلى الخزينة لندفع اكتشفت أمي أنها لا تحمل نقودًا. ظننت أنها ستطلب من زوجها. قالت لي بضيق :

– لا تخبريه. سأشتريها لك في يوم آخر.

لم تشأ أن تطلب منه. فضّلت أن توفر عليه بعض النقود وتتركني لأموت من الجوع. لم يكن لي أي قيمة. صدمتني هذه الواقعة.

– تبدين حزينة، قال (أورسيني).

كان الثلاثة يتأملونني بصمت. ركزت (غاييل) نظرها على حذائي :

– عليك شراء حذاء جديد..

ربما أرادت اعطائي درسًا في الأناقة، أو أنها أرادت ببساطة أن تهديء الأجواء..

– (سيدريك) يعرض أحذية جميلة، سأريك اياها غدًا..

انــتهوا بــأن قاموا للرقص. (غاييل) مع (لافون). ثم مع (أورســيني). أنا قلت لهم أنني لا أتقن الرقص. أصرّا (لافون) و (أورســيني)، لكننـــي رفضت، لم أعد اسمعهم. لم أعد أسمع غــير الموسيقى. موسيقى حزينة وغامضة، شعرت بها تأتي من داخلـــي لا مـــن الخارج. واحدة من تلك الألحان التي لا نسمعها بسبب جلبة الأحاديث، لكن صداها يعود لاحقًا وسط السكون، قبل أن تختنق من جديد. تشوشت وجوههم. يحركون شفاههم ليتكلموا، لكننـــي لا أســـمعهم. نســـيت أيـــن أنا كما نسيت الظروف التي أوصـــلتني إلـــى هـــذا المكـــان. أمامي شخصان يرقصان. نفس الشخصـــين. (غايـــيل) و (أورسيني). (لافون) و (غاييل). وأنا لم أعد سوى تلك الموسيقى البعيدة التي تتجدد كلّما شعرنا بها على وشك التوقف، فتعود في كل مرّة أبطأ وكأنها تستغل الصمت لنسمعها قليلاً.

انتبهــت فجأة في شارع (فوغلاس) إلى أنني نسيت حقيبة ســفري التــي كنت أحملها معي كل يوم أحد واضعة فيها غيارًا نظيفًا وألواح الشوكولا. نسيتها في (التافرن).

هــذه المــرة، تولّــى (أورسيني) القيادة وجلست في المقعد الأمامي بجواره، طلب منه (لافون) أن نوصّلهم هو و (غابيل) مباشــرة إلى فندق (انجلترا)، ثم أعود برفقة (أورسيني) لجلب الحقيبة، اذا كان (التافرن) لم يغلق أبوابه بعد.

توقفــت السيارة أمام فندق (انجلترا)، وداعبت يد (غابيل) شعري.

– أراك بعد قليل يا صغيرتي، قالت لي.

ثــم ســلكت – محاطة بذراع (لافون) – الممشى المشجر المرصوف بالحصى، المؤدي إلى الفندق. كانت تترنح قليلاً.

دار (أورســيني) بالســيارة وعدنــا أدراجــنا إلــى شارع (رويال).

كان (التافرن) على وشك الإغلاق. الكراسي مرفوعة على الطــاولات وأحــد الصبية يكنس الأرضية تحت ضوء لمبة نيون واحدة.

– إذًا، هل أوصلك إلى المدرسة ؟ سألني (أورسيني).

كــان قد رفع الكلفة بيننا. سلك شارع (ألبيني)، فقلت لنفسي أنه سيتبع هذا الشارع المباشر المهجور تحت المصابيح ثم سيكمل الطريق المعتادة، طريق حافلات الأحد المسائية، لكنه ما أن وصل إلى مبنى المحافظة حتى استدار عائدًا.

فـــي هـــذه اللحظة، خيّل إلي أن حياتي ستتخذ مجرى جديدًا، انتهت بالنسبة لي المرحلة حيث كل شيء معلّق، حيث نجد أنفسنا علـــى حـــدود كل شيء، وكأننا في غرفة انتظار. شعرت ونحن نجـــتاز الشـــوارع الخالية كأن السيارة تسير من بطيء إلى ابطأ، وكأنني عدت اسمع الموسيقى التي سمعتها منذ قليل.

توقـــف عـــند مدخـــل فـــندق (انجلـــترا). اجتزنا الممشى المرصـــوف بالحصى حتى وصلنا إلى مكتب الاستقبال الذي كان خاليًا. صعدت الدرج وراءه. في الطابق الأول رواق مضاء. كان المفتاح لا يزال في باب الغرفة.

تركني أدخل قبله. كانت الغرفة كبيرة ونصف معتمة.

في الداخل، يتسرب من فرجة باب الحمام مستطيل من النور، فـــي الـــزاوية اليسرى، تمدد كل من (غاييل) و (لافون) على أريكـــة لكنني بالكاد كنت استطيع رؤيتهم، وكانت (غاييل) تتنهد بصـــوت يعلو أكثر فأكثر، أغلق (أورسيني) الباب بالمفتاح من الداخل، وقادني إلى سرير ذي قضبان نحاسية.

لاحقًا، بدا عليه التعجب عندما اكتشف أنني غير عذراء.

لـــم أعد بعد تلك الليلة إلى المدرسة، ولم أرى خالتي ولا أمي نهائيًا. لم أخسر الكثير.

وجـــدت عمـــلاً بمساعدة (بوب برون)، صديق أبي القديم، كـــنادلة فـــي مقهى في شارع البحيرة تحت القناطر. كما أعطوني غرفة في الطابق الأخير في ذات المبنى الذي يضم أسفله المقهى.

في يناير، رحلت (سيلفي) إلى باريس، اخبرتني أنها ستعمل لدى عمها في (فوجيرار) وأنها سترسل في طلبي كما خطّطنا منذ زمن.

وصلني منها بعد خمسة عشر يومًا بطاقة بريدية كتبت عليها:

" كل شيء بخير. إلى اللقاء القريب. قبلاتي "

لم تذكر عنوانها. كان المظروف يحمل اسم شارع (رونود). وبعد ذلك انقطعت اخبارها، من المؤكد أنها نستني. مرّ الشتاء بأيامه الرتيبة. لم يكن المقهى يزدحم بالزبائن طوال الأسبوع. يأتون في يومي السبت الأحد، وخلال إجازات (ثلاثاء المرفع*)، وعيد الفصح.

لم أعد أرتدي مريول المدرسة الأسود، المطرزة رقبته بالأحمر، صرت ارتدي زيًا آخر، تنورة سوداء ومريول صغير من الدانتيل. نفسالحركات، نفس الكلمات كل يوم.

لم يعد الأمر: عنبر النوم، دروس، قاعة الطعام، الكنيسة..

بل صار اكلير بالشوكولا، شاي بالحليب، اكسبرسو، آيس كريم بنكهة الفستق والفراولة، حلوى الماكارون، مزيد من السكر لو سمحت يا آنسة.

في المساء، بعد العمل، لي الحرية بأن أتمشي في الشوارع وأن أذهب إلى السينما. خلال فصلي الشتاء والربيع هذين، لم أر أحدًا تقريبًا. كنت أفضل البقاء وحدي. لمدة خمس سنوات في المدرسة، عشت باستمرار مع الآخرين. لم يكن لدي خلال

* آخر يوم قبل الصوم الكبير لدى الكنيسة الغربية.

الـــنهارأي لحظة خصوصية، ولا نشاط يومي لا نقوم به جماعيًّأ : الأكل والنوم والاغتسال.

فـــي باديء الأمر لم استوعب أن تكون لي غرفتي الخاصة، فكنت استيقظ مذعورة في الليل معتقدة أنني تحت الضوء الأزرق لمصـــابيح العنـــبر. كنـــت اضــــطر لإشعال الضوء في كل مرة لأطمئن. لا، كل شيء انتهى. انتهى فعلاً.

كـــان بإمكانــــي، خـــلال نزهاتي المسائية، أن أقصد الحديقة العامـــة أو (شــــان دو مـــارس) ناحـــية شارع (البينيي)، تلك الأماكن التي تجلب السائحين، وتطل على البحيرة.

كنـــت اســـلك الطريق المعاكسة. دون تفكير تقودني خطواتي دائمًـــا إلى المحطة. أدخل إلى باحة المحطة في الليل وأجلس على مقعـــد علـــى الرصيف الذي ينطلق منه القطار إلى باريس. أتخيّل أنني سأستقلّه وأترك خلفي كل ماكان حياتي حتى الآن.

لكـــن بعد وصولي إلى باريس، على عكس (سيلفي)، كنت ســـأهرب إلى مكان أبعد، إلى بلد لا يتكلمون فيه الفرنسية، لأقطع الجسور نهائيًا.

بعد ذلك كنت أعود إلى غرفتي. في طريق العودة، في شارع (رويـــال)، يتملكنـــي الإحباط. سأبقى عالقة إلى النهاية في هذه المدينة، ولن أقابل في حياتي من قد ينتشلني منها، والإنطلاقة التي أشعر بها داخلي، كنت أخشى أن تضعف يومًا بعد يوم.

عـاد الفصـل الجميل. كان الصيف الذي سأبلغ فيه السابعة عشـرة. اخطرونـي في يونيو أنهم ابتداءًا من الشهر المقبل، لن يعودوا في حاجة إلى خدماتي.

قصـدت حارسًا في فندق (امبريال)، وشرحت له أنني من طـرف (بـوب بـرون) أخبرته أنني متوفرة إذا ما احتاج أحد المصـطافين الأغنـياء فـي الفندق إلى مربّية، أو إذا توفّرت في الفندق وظيفة شاغرة لنادلة أو خادمة.

نظر لي الحارس بعين منتبهة ووعدني بأنه سيفعل ما بوسعه ليجد لي عملاً، قال لي :

- انت " ستذهبين بعيدًا "..

وكرّر : " ستذهبين بعيدًا ".

ربمـا أراد تشجيعي. في ذلك اليوم تحديدًا، كنت أشعر بيأس شديد. لم يكن لدي الكثير من الاحتمالات للمستقبل.

بعدها بثلاثة أيام، أعلمني الحارس أنه أوصى بي لدى إحدى السيدات، وأنها بانتظاري في الفندق.

كـان اسـمها مدام (الكوتوب)، عمرها لا يقل عن السبعين أوحـتى أكـثر لكنها تبدو في الخمسينيات. تعيش بين (لوزان) و(بـاريس)، وتقضـي إجازة الصيف في الإمبريال. عملي هو مرافقتها والاهتمام بكلبها.

أدهشـني مـنذ أول لقاء بمدام (الكوتوب) اختلافها عن كل أنواع البرجوازيين الذين صادفتهم في الفيلات الواقعة على ضفاف البحيرة.

تحدثنـــي بمـــودة كأنني ابنتها أو حفيدتها، بلكنة مميزة شرح الحـــارس لـــي أنها خاصة بسكان ضواحي باريس، اخبرني أيضًا أنها كانت راقصة عندما كانت في العشرين، هي الآن أرملة.

يكاد شهر يوليو الذي قضيته بجانبها يكون هو الفترة الجميلة الوحيدة في هذا الصيف.

علـــيّ الاعتراف بأن عملي كان أقل ارهاقًا بكثير من العمل الـــذي كنـــت أزاوله مع خالتي في المواسم الماضية في الفيلات، وحـــتى مـــن العمـــل كنادلة في صالون الشاي حيث كنت أمضي نهاري واقفة.

كـــان علـــيّ أن أصـــحب كلب مدام الكوتوب (البوكسر)، ليقضي حاجته في الخارج، كانت تطلق عليه اسم (بوبي بانيار) لأنها ترى فيه مهرجًا.

أرافـــق مـــدام (الكوتـــوب) خلال الإفطار في باحة مطعم الإمـــبريال الفســـيحة بمواجهـــة البحيرة. أقابلها هناك وبصحبتي الكلب، بعد أن أكون قد أطعمته في الغرفة.

أعـــيد اصطحاب الكلب مجددًا ليقضي حاجته في الرابعة بعد الظهـــر ثم في في السابعة مساءًا. ثم أرافق مدام (الكوتوب) إلى الكازيـــنو. تبقى هناك حتى الساعة الحادية عشرة مساءًا، تلعب " الروليـــت " كمـــا أخبرني الحارس. اثناء ذلك، أحرس الكلب في الغـــرفة ثـــمّ أصطحبه حوالي الساعة العاشرة ليقضي حاجته في الخارج للمرة الأخيرة.

عـــاد الفصـــل الجميل. كان الصيف الذي سأبلغ فيه السابعة عشـــرة. اخطرونـــي في يونيو أنهم ابتداءًا من الشهر المقبل، لن يعودوا في حاجة إلى خدماتي.

قصـــدت حارسًا في فندق (امبريال)، وشرحت له أنني من طـــرف (بـــوب بـــرون) أخبرته أنني متوفرة إذا ما احتاج أحد المصـــطافين الأغنـــياء فـــي الفندق إلى مربّية، أو إذا توفّرت في الفندق وظيفة شاغرة لنادلة أو خادمة.

نظر لي الحارس بعين منتبهة ووعدني بأنه سيفعل ما بوسعه ليجد لي عملاً، قال لي :

– انت " ستذهبين بعيدًا "..

وكرّر : " ستذهبين بعيدًا ".

ربمـــا أراد تشجيعي. في ذلك اليوم تحديدًا، كنت أشعر بيأس شديد. لم يكن لدي الكثير من الاحتمالات للمستقبل.

بعدها بثلاثة أيام، أعلمني الحارس أنه أوصـى بي لدى إحدى السيدات، وأنها بانتظاري في الفندق.

كـــان اســـمها مدام (الكوتوب)، عمرها لا يقل عن السبعين أوحـــتى أكـــثر لكنها تبدو في الخمسينيات. تعيش بين (لوزان) و(بـــاريس)، وتقضـــي إجازة الصيف في الإمبريال. عملي هو مرافقتها والاهتمام بكلبها.

أدهشـــني مـــنذ أول لقاء بمدام (الكوتوب) اختلافها عن كل أنواع البرجوازيين الذين صادفتهم في الفيلات الواقعة على ضفاف البحيرة.

تحدثنــي بمــودة كأنني ابنتها أو حفيدتها، بلكنة مميزة شرح الحــارس لــي أنها خاصة بسكان ضواحي باريس، اخبرني أيضًا أنها كانت راقصة عندما كانت في العشرين، هي الآن أرملة.

يكاد شهر يوليو الذي قضيته بجانبها يكون هو الفترة الجميلة الوحيدة في هذا الصيف.

علــيّ الاعتراف بأن عملي كان أقل ارهاقًا بكثير من العمل الــذي كنــت أزاوله مع خالتي في المواسم الماضية في الفيلات، وحــتى مــن العمــل كنادلة في صالون الشاي حيث كنت أمضي نهاري واقفة.

كــان علــيّ أن أصــحب كلب مدام الكوتوب (البوكسر)، ليقضي حاجته في الخارج، كانت تطلق عليه اسم (بوبي بانيار) لأنها ترى فيه مهرجًا.

أرافــق مــدام (الكوتــوب) خلال الإفطار في باحة مطعم الإمــبريال الفســيحة بمواجهــة البحيرة. أقابلها هناك وبصحبتي الكلب، بعد أن أكون قد أطعمته في الغرفة.

أعــيد اصطحاب الكلب مجددًا ليقضي حاجته في الرابعة بعد الظهــر ثم في في السابعة مساءًا. ثم أرافق مدام (الكوتوب) إلى الكازيــنو. تبقى هناك حتى الساعة الحادية عشرة مساءًا، تلعب " الروليــت " كمــا أخبرني الحارس. اثناء ذلك، أحرس الكلب في الغــرفة ثــمّ أصطحبه حوالي الساعة العاشرة ليقضي حاجته في الخارج للمرة الأخيرة.

أذهــب في الحادية عشرة إلى الكازينو لأعيد مدام (الكوتوب) إلى الفندق.

عندها، تناولني مظروفًا به ثلاث ورقات من فئة المئة فرنك، وورقة محفور أعلاها في الناحية اليسرى بالأزرق :

إلييت الكوتوب

١ شارع المارشال – مونوري

باريس – الحي السادس عشر

ثم بالعرض، وبخطها الكبير، هذه الكلمة : شكرًا.

فـــي الـــيوم الأول، اعتقدت أن هذا راتب الشهر، قلت لها أن باستطاعتها أن تدفع لي في آخر يوليو، لكنها هزت كتفيها متهكّمة وقالت :

– يـــا صغيرتي، من الأفضل أن يكون الدفع يومًا بيوم.. ثقي بخبرتي.. هذا أضمن.

أرافقهـــا وكلبها مرتين في الأسبوع إلى (لوزان) حيث تقيم معظـــم الوقت في فندق (بوريفاج). وكانت قد قررت أن تستقر هـــناك نهائيًا بدءًا من هذه السنة، لن تتخطى الحدود ثانية بعد أن تنتهـــي هذه الإجازة في (أنيسي). قالت لي أن فرنسا و باريس يـــرجعان إلـــيها ذكـــريات كثيرة. في لوزان، قالت لي أن الزمن توقـــف.. لا شيء يدعو للتفكير.. " لوزان هي المكان الذي تقصده النساء اللواتي عشن أكثر من حياة مثلي لينهين أيامهن ".

يوصـــلنا التاكســـي إلـــى فندق (بوريفاج) حيث تلتقي مدام (الكوتوب) أصدقائها للعب دور كاناستا، بينما آخذ الكلب ليقضي حاجته في حديقة الفندق.

بعـــد اجتـــياز ملعب التنس، نسلك طريقًا تمتد بمحاذاته، على هضـــبة مائلة مكسوة بالعشب، قبور صغيرة للكلاب، مكتوب على كل منها اسم الكلب وعبارات بالإنجليزية أو الفرنسية أو الإسبانية أو الألمانية.

تشـــير التواريخ إلى أن هذه الكلاب عاشت في النصف الأول مـــن القـــرن وأن أصولها تعود إلى بلدان مختلفة، كان أحدها من مواليد أميركا.

لم تكن النساء اللواتي يشبهن مدام (الكوتوب) هن الوحيدات اللواتي ينهين أيامهن في لوزان. كانت الكلاب أيضًا تفعل ذلك.

أتعشّـــى مـــع (بوبـــي بانيار) في الفندق، ثم يأتي التاكسي لـــيأخذنا حوالـــي الســـاعة الحاديـــة عشرة لنعود نحن الثلاثة إلى (أنيسي).

خـــلال هـــذه الأيام، كانت مدام (الكوتوب) تدفع لي ٥٠٠ فـــرنك عن اليوم. تعلّقت بها وبالكلب. في المرّات التي كنت آخذ فيها الكلب ليقضي حاجته في فندق (امبريال) أو في (بوريفاج)، كـــان يتوقف من حين آخر ويحدجني بنظرة غريبة، وكأنه لم يكن يأخذنـــي علـــى محمل الجد بشكل كاف، ويريد أن يوحي لي بأن كلانا بين أياد أمينة. حسبي أن يدوم هذا.

غالبًا ما كنت أصطحبه في (أنيسي) عند العاشرة مساءً في نزهة أطول من العادة. نذهب نحن الإثنين إلى المحطة. في طريق العودة، أجدني غير محتاجة إلى ربطه بالرسن.

من المؤكد أنه يعرف الكثير عن الحياة، بقدر ما تعرف مدام (الكوتـوب)، تعاملنـي فـي التاكسي الذي يقلّنا إلى (لوزان) بلطـف وتطرح عليّ اسئلة حول حياتي. ذات يوم، ضغطت على ذراعي قائلة لي وهي تبتسم : أنت، أشعر أنك بنفس عزم عيّنة آل الكوتوب.

لـم أفهم جيدًا وقتها، أخبرتني أن الرجال أرضوها " على كل المستويات "، وأنها تعتقد أنني سأحظى بنفس المعاملة، بالرغم من اخـتلاف شـكلينا، فعندما كانت في مثل سنّي، كانت شقراء ذات عيون خضراء ونظرة زمرّدية.

كانـت تودّ أن تسدي لي النصائح، لكنها تعتقد أن العالم تغيّر عـن أيّـام شـبابها. لم يعد الرجال رجالاً بحق. أصبحوا بخلاء وخسيسـين. قليلي الدخل. قلت لها أنني لست مهتمة بالمال، وإنما بالحب الكبير.

- أتعرفين ؟ المال لا يمنع الحب الكبير..

فجأة يبدو عليها التفكير، أو حتى الحزن..

كـان مـن عادة سائق التاكسي أن يدير الراديو ونحن على طـريق (لوزان). وكثيرًا ما كرّر الراديو في هذا الصيف إذاعة أغنـية كـنا نحـبها جدًا، مدام (الكوتوب) و أنا : الحب كنهار، يذهب، يذهب، الحب..

توجّهت ذات صباح كعادتي إلى الفندق فأخبرني الحارس أن مدام (الكوتوب) لم تعد هنا. رحلت في المساء مع (بوبي بانيار) دون أية تفسيرات. تركت لي مظروفًا.

١٠٠٠ فــرنك بــأوراق من فئة المئة فرنك، وشكرًا بخطها الكبير.

أوجعنـــي رحيلها، للناس أساليب غريبة في الاختفاء.. فكرت كثيرًا خلال الأيام اللاحقة بمدام (الكوتوب) وكلبها، بـــ (سيلفي)، بأبي..

فـــي المساء، قادتني خطواتي إلى المحطة وإلى مقهى شارع البريد.

كـــان (بـــوب بـــرون) يجري حساباته وراء البار ويستعد للإغـــلاق. كان سعيدًا حقًا لرؤيتي، فقد وجد بعض التذكارات التي تخصّ والدي والتي أراد أن يسلّمني إياها.

حقيـــبة مـــن الجلد البنّي الفاتح، تحوي كتبًا وصور، مسدسًا وطلقـــات فـــي علبة صغيرة. أخرج المسدس وشرح لي أنه ذاك الذي استعمله أبي خلال الحرب و " بعدها ".

كـــان راميًا ماهرً. أصر على أن يريني كيف يعمل المسدس، أوالمســـدس الآلي على وجه الدقة، تابعت شرحه رغم أن الأسلحة لا تســـتهويني. فلفهـــم والد مجهول، يجب السير على آثار خطاه وتكرار نفس أفعاله.

كـــان أبـــي في أغلب الصور مع نساء، لكن أمي لم تكن أيًا منهن.

بـدأت في المساء، قراءة الكتب التي كان قد قرأها، بما أنها كانت في الحقيبة :

شارع القط – الصياد

سيرة (مرميوز)

كتيّب تسلق الألب

كتيّب التمويه

وكتيّـب صـغير لونه أخضر باهت : مختارات من شعراء القرن التاسع عشر، وضع خطًا تحت بيتين منه :

" أتذكّـر.. الأيـام الخوالي " لكنني لم استطع معرفة المزيد عنه.

فـي أواخـر أغسـطس، دلّنـي الحـارس على نزلاء في (الإمبريال) يفتشون عن مربّية.

زوجـان من الأغنياء جدًا، في الثلاثينيات من عمرهما، السيد والسيدة (فريدريك اسبن).

الزوجة شقراء، متعالية، تبدو دائمة الإستياء. لم توجه لي أية كلمـة، وكنـت بالكاد أراها. الزوج لم يعجبني : فرنسي، متعال بـدوره، ولديه أهواء وتقلبات طفل مدلل. يحجز ملعب التنس في الفـندق طوال اليوم لأنه لا يحتمل أن يلعب أحد فيه خلال غيابه. يسـتأجر لنشـا ويقضي النهار بطوله مع زوجته يمارسان التزلج المائي.

كان عنيفًا، لكنه يريد أن يأسر بسحره كل من يعتبرهم من أتباعه. بهذا المنطق، قال لي :

- كلا، لا تناديني بلقب السيد.. لا داعي لذلك بيننا.

ويحـــدّق بي بنظرة مزدرية ومستمتعة في نفس الوقت، تحت جفـــون مـــثقلة، لكنني أصريت على مناداته بالسيد. كان أشقر ذو شـــعر أجعد ولون برونزي وعينين زرقاوين، أخبرني الحارث أنه يشبه وريث عرش ايطاليا، وكأنني سأعرف عمّن يتكلم.

رعيـــت ولديهما لمدة ثلاثة أيام. اصطحبهما للسباحة إلى شط الســـبورتنغ، ثم إلى باحة المطعم للغداء، ثم إلى غرفتهما للقيلولة. ومـــن جديد، سباحة عند الساعة الخامسة، ثم العشاء عند السابعة والنصـــف فـــي غرفـــتهما المجـــاورة لغرفة والديهما. النوم عند التاســـعة. انـــتظر حـــتى منتصف الليل وقت عودة السيد والسيدة (اسبن). أقرأ أحد الكتب التي كانت لأبي : شارع القط الصيّاد.

رحـــلا مـــع ولديهما بعد نهاية الأيام الثلاثة إلى جنيف حيث يعيشـــون. لكـــن السيد (اسبن) اتصل بالحارس في اليوم التالي. مـــازالوا بحاجة لمربّية لمدة اسبوع في جنيف إلى أن تعود مربّية ابنيهما من إجازتها،

ويفضّلون أن تكون أنا.

لا أعـــرف لماذا وافقت. لاشك لأحصل على مزيد من النقود قـــبل أن أرحل عن المنطقة نهائيًا. إلى أين ؟ لم أكن أعرف بعد، لكننـــي أردته أن يكون أبعد مكان ممكن. ثم أن الحارس نصحني أن أذهب.

كـــان يحـــترم السيد (فريدريك)، ربما بسبب شبهه لوريث العـــرش الإيطالـــي. أخبرني أن جد السيّد (فريدريك) الفرنسي

كـون ثـروة فـي أميركا قبل الحرب، من خلال اختراعه لمادة بلاستيكية استعملت بكثافة في الصناعة. ورث السيد (فريدريك) جدّه منذ عشر سنوات. كان يعيش من ثروته في سويسرا وأميركا، وبالطبع كانت ضخمة لدرجة أشعرت السيد (فريدريك) أنـه فوق القانون وفوق الاحتمالات التي على الإنسان العادي أن يخضع لها.

كـان علـيّ أن أصل إلى بيت السيد و السيدة (اسبن) قبل وقت العشاء، وقفت في المحطة انتظر الحافلة المتجهة إلى جنيف، كان مساء أحد. على بعد قليل منّي في ميدان المحطة، وقفت حافلة أخـرى بدأ محركها فعلاً في الدوران : الحافلة التي كانت تقلّني، كل أحد، إلى المدرسة.

شعرت بضيق، حاولت أن أقاومه. ففي النهاية، لم أكن مجبرة علـى الذهاب للعمل في جنيف. لكنني كنت أقول لنفسي ربما كان الأمـر يستحق، بما أنني سأحصلُ على ١٥٠٠ فرنك في أسبوع. استقلّيت الحافلة ومعي حقيبة السفر ذاتها التي كنت استعملها في المدرسة، وضعت فيها، بين ثيابي وعلبة الزينة، الأغراض التي كانـت لأبي والتي أردت الاحتفاظ بها كتعاويذ : الصور، الكتب، المسدس والرصاصات.

انطلقـت الحافلة. كان الركاب أقل بكثير من ركاب مساءات العـودة إلـى الملجأ. ظلّت بعض الأماكن خالية. جلست في نهاية الحافلة واضعة حقيبتي على المقعد المجاور.

لـــم يكن الظلام قد حلّ بعد. توقفنا في (كروسييه)، ففكرت فـــي الشـــقراء، زميلتي في الفصل التي كانت تعيش هنا، ماالذي أصبحت عليه ؟

كنـــت مازلت احتفظ بالإيمانوكتال لكنه في ذلك اليوم لم يكن معي. كان في غرفتي، في شارع البحيرة.

(سانت جوليان أن جنفوا). الحدود. لم يطلب حراس الحدود أوراقـــنا. عـــبرت الحافلـــة مع غروب الشمس ضواحي مدينة لا أعرفها، ثم توقفت في المحطة.

أعطيت الموظف الذي كان لا يزال موجودًا في شباك التذاكر بالمحطـــة عنوان الزوجان (اسبن) وسألته عن الطريق. قال أنها بعـــيدة بعض الشيء ان كنت سأقصدها مشيًا، خلف متنزه " الحياة الحـــيوية "، فاســـتقليت تاكسي. طلبت من السائق أن ينزلني على الرصـــيف علـــى بعد بضعة أمتار من منزلهما. أردت أن أمشي لأهدي قلقي. كان الليل قد هبط.

بـــدت ضفاف بحيرة (ليمان) شبيهة بضفاف بحيرة (أنيسي) تحت ضوء الفوانيس.

مشـــيت وإلى يساري سور مبنى ضخم قد يكون مبنى دائرة الشـــرطة. الرصـــيف وشـــجيرات الدلـــب ذاتها التي في شارع (ألبيني).

كنت أمسك حقيبة السفر بيدي وأمشي كما في مساءات الأحد عندما كنت أسلك طريق المدرسة. لا شيء سيتغير أبدًا. كل شيء يتكرر في نفس المواعيد، بنفس الديكور.

كــان الحــارس قد قال لي : " ستذهبين بعيدًا "، لكنني أدور حول نفسي منذ سنين، دون أن استطيع الخروج من الدائرة..

إجتاحني احباط واحساس بالوحدة لم أحاول حتى مقاومتهما.

ومــع ذلك، كنت أعرف أن شيئًا صغيرًا كان ليكفي، صوت ناعم يمدّني بالنصيحة، يد تربت على كتفي.

ضــربت الجــرس. ســمعت صــوت خطوات في الممشى المفروش بالحصى. كان السيد (اسبن) هو الذي أتى يفتح لي. لا زال أشــقرًا ذي شعر أجعد. لكن درجة لونه البرونزي قد زادت. حيّانــي وابتســم لي ابتسامة ماجنة، كان يحدّق بي بطريقة غريبة تحت جفونه الثقيلة. وكأنه مخمور. يلبس صديريًا ووشاحًا معقودًا علــى ياقة قميصه المفتوحة. سلكنا الممشى المضاء بفانوس على سلّم المنزل الخارجي.

منزل أبيض بواجهات زجاجية، له مدخل منخفض، بيت أكثر ضخامة وفخامة من الفيلات التي عملت فيها مع خالتي في فصول الصيف.

قال لي، ونحن في المدخل، عند أسفل السلّم :

- الولــدان ليسا هنا هذا المساء. سيأتيان غدًا من (غشتاد) برفقة زوجي. سأريك غرفتك إذا أردت.

لديــه تلك الصفاقة، وتلك الابتسامة التي تشعرك بأنه يحتقرك قليلاً، أو بأنه يسخر منك.

الأرض رخامـية، مرسـوم عليها معيّنا بالأسود والأبيض. أغلـق باب المدخل الحديدي بالمفتاح من الداخل. و احسست فجأة أنني وقعت في فخ. توجه نحو السلّم :

– هل أوصلّك إلى غرفتك ؟

صعدت السلم خلفه.

اسـتحوذ عليّ القلق منذ اللحظة التي رأيته يوصد فيها الباب، لكننـي كنـت استعيد برودة دمي مع كل درجة أطؤها. عند رأس السلم قال لي :

– معي صديق هنا. أتودين تناول كأس معنا ؟

فاجأني هذا الإقتراح.

– كما تريد، سيدي.

– لا تناديني بسيدي.. على الأقل، ليس هذا المساء.

وابتسم لي.

ادخلنـي إلـى صالون صغير، جدرانه مكسوة بالخشب، في أحـدى الجوانب مكتبة، أريكة أمام المدفأة. يضيء المكان فانوس ولمبة فوق المدفأة.

سـتائر الـنوافذ كانت مسدلة وعلى الأريكة يجلس رجل قام واقفـا، أشـقر، متوسط الطول من نفس سن السيد (اسبن)، ٣٥ عامًا. يرتدي سترة وربطة عنق. ويتدلّى حول معصمه سلسلة من الذهب.

مدّ لي يده وعرّفني بنفسه :

– اسمي (آلان). هل أنت صديقة (فريدريك) ؟

لديــه واحــد مــن تلك الأصوات ذات النبرة الباردة، ووجه متجعّد تالف كوجه كهل.

- إنها المربّية الجديدة، قال السيد (اسبن).

عندها، رمقني الآخر بنظرة احتقار وكأنني بهيمة. هزّ رأسه.

علــى الطاولة المنخفضة صينية عليها زجاجة كونياك نصف فارغة. كأسان على طرف الطاولة. في المنفضة، سيجار مطفأ.

- إجلسي، قال لي السيد (اسبن).

جلســت على المقعد الجلدي، قرب الأريكة، واضعة حقيبتي في حضني.

- خذي راحتك.

أخذ الحقيبة ووضعها بين الأريكة والمقعد. الآخر كان مايزال يتأملنــي مبتسمًا، لكنها ابتسامة مزيفة لأن البرود كان ظاهرًا في عينيه.

- فــي نهاية الأمر، لم يكن فاخرًا جدًا المطعم الإيطالي. قال السيد (اسبن).

تحــت المدفــأة صــورة امــرأة فــي إطار. بشرتها فاتحة وابتســامتها سعيدة. أمه، دون شك، التي تحبه جدًا، وهو المفضّل لديها، أو الابن الوحيد.

- مــن الجــيد أننا لم نذهب للصيد في (الكلوب ٥٨)، قال الآخر، بما أننا لدينا هذه الساحرة في المنزل.

كــان الســيد (اسبن) ينظر إلى الآخر بابتسامة ثابتة وبعين معجبة بل محبة. ربما كان بينهما علاقة غامضة.

- بمـــا أن الأطفال ليسوا هنا، قال الآخر، ستقوم بدور المربية معنا.

- مـــاذا تـــريد مـــنها أن تفعـــل لك يا (آلان). سأل السيد (اسبن)، وقد بدا عليه الاستمتاع.

فـــي هذه اللحظة، تأكدت أنهما مخموران ومستعدان لفعل أي شيء.

مـــن المؤكـــد أن الآخـــر يشـــعر بدوره أنه - حسب عبارة الحـــارس - فوق القوانين والاحتمالات التي على الانسان العادي أن يخضع لها. وأنا لم أكن بالنسبة لهم غير انسانة عادية.

نهـــض الســـيد (اسبن) وأطفأ الفانوس. أصبح الضوء الآن أخـــفّ حـــول الأريكـــة. جـــاء الآخر وجلس على طرف المقعد واحسست بيده تداعب رقبتي.

- الآن، قال لي، سوف ترينا كيف تقومين بدور المربّية.

جلـــس الســـيد (اســـبن) على الأريكة، إلى جانبي مباشرة، وكأنـــه يتحضّـــر لمشاهدة عرض شيّق. أحسست بوطأة يد الآخر على رقبتي. أراد أن يجعلني انحني لكنني تصلّبت ولم أتحرك قيد أنملة.

- أفضّل أن نقوم بهذا في غرفتي، قلت بصوت متقطّع.

فاجأهما هدوئي.

- طـــبعًا، معهـــا حـــق، قال الآخر، سيكون هذا أفضل في غرفتها.

أطلقت يده رقبتي. وقفت. السيد (اسبن) وقف بدروه. ألتقطت الحقيبة.

- غرفتك في الطابق الثاني. قال السيد (اسبن).

- حاول أن تحضّر مربيتنا جيدًا. قال الآخر بصوت بارد. سأتبعكم بعد نصف ساعة.

- سأفعل ما بوسعي، قال السيد (اسبن).

- نعم.. بالضبط.. ما بوسعك..

وانفجر في ضحكة أبرد من صوته.

خرجنا من الصالون. ومن جديد، كنت أصعد السلّم خلفه.

غرفة واسعة، سرير كبير وجدران يكسوها قماش أصفر. فيها حمّام بابه مفتوح على مصراعيه، بين النافذتين طاولة زينة مزدحمة بالدبابيس وأدوات الزينة وزجاجات العطور. أدركت أنها لم تكن غرفتي. كان هناك مفتاح صغير في الباب. أداره في القفل ووضعه في جيبه. كنت أهدأ بالتدريج.

- أيمكنني دخول الحمّام للحظة سيدي؟

أومأ برأسه، وناولني في يدي ورقة بخمسين فرنك بمثابة بقشيش.

- بإمكانك الليلة الاستمرار في مناداتي بسيدي.. أفضّل ذلك.

دخلت الحمّام ومعي حقيبة السفر. أقفلت الباب وفتحت صنبور المغسلة. تركت الماء يسيل. جلست على حافة البانيو وفتّشت في الحقيبة. اخرجت المسدس والعلبة الصغيرة التي تحتوي على الرصاص. حشوت المسدس.

في كل الأحوال، ستكون دومًا نفس المواسم. نفس البحيرات. نفس الحافلة يوم الأحد مساءًا. الإثنين. الثلاثاء. الجمعة. يناير. فبراير. مارس. مايو. سبتمبر. نفس الأيام. نفس الأشخاص. في نفس المواعيد. دائمًا خمسة أصابع، كما كان يقول أبي. دخلت الغرفة. كان ينتظرني، جالسًا على المقعد بجانب الطاولة. انتفض رافعًا جفونه الثقيلة.

بالنسبة لأسلوب الرماية، يبدو أنني ورثت الموهبة عن أبي، لأنني قتلت السيد من أول طلقة.

٣

لا شك أنني نسيت تفاصيل كثيرة. لكنني عندما أفكّر في تلك الأيام، اسمع مجددًا صوت حوافر الأحصنة.

كنــت قد وصلت إلى باريس في شهر يناير وأنا في التاسعة عشرة من عمري. جئت من لندن. سلّمني رجل نمساوي قابلته في ذلــك الخــريف في (نوتنغ هيل) مفاتيح مشغله في باريس. كان ينوي الإقامة لوقت طويل في (ماجورك) ويفضّل أن يسكن أحد ما مشغله خلال غيابه. قبلت عرضه.

كنت أجهل الحي الذي سأسكن فيه جهلاً تامًا. كان في شارع (شــافلو)، قــرب محطــة مترو (بورت دوفانف). تطل نافذة المشغل الزجاجية على حديقة صغيرة وبيت صغير للسكن يبدوان مهجورين.

تســاءلت عندما وجدت نفسي وحيدة في هذا المكان، ان كنت سأتحمّل البقاء فيه.

كنــت قد غادرت (لندن) بقرار طائش، لأنه لم يعد لديّ ما يســتدعي بقائــي فيها. وهنا، في باريس، في هذا الحي المجهول، كنت منقطعة فعلاً عن العالم.

استغرقت وقتًا طويلاً لأغفو في أول ليلة لي في المشغل. كل شيء كان صامتًا، وكأن البناية خالية من السكان. أيقظني في الفجر صوت حوافر الأحصنة. قلت لنفسي ربما يمر من هنا فوج من الخيالة يقصدون البوليفار*. كان الطقس جميلاً في ذلك الأسبوع الأخير من يناير، والسماء كانت ملوّنة بزرقة خفيفة.

تتالت الأيام تحت السماء الزرقاء ذاتها والشمس ذاتها. كان قد بقي لديّ ٢٠٠٠ فرنك من المال الذي أعطوني إياه بعد أن صرفوني من العمل لدى (باركرز). مبلغ يكفيني لقضاء شهر، عليّ أن أعود بعد انقضائه إلى لندن.

بعد يومين أو ثلاثة من وصولي، رنّ جرس الهاتف في حوالي الحادية عشرة صباحًا. كنت قد استيقظت لتوي. جاءني صوت امرأة تسأل عن (جورج غريمير)، النمساوي صاحب المشغل، أخبرتها أنه مسافر. صمتت. ثم سألتني المرأة من أكون. قلت لها أنني أحرس المشغل في

غياب النمساوي. تركت اسمها ورقم هاتفها حتى أعطيه إياهما في حال اتصل بي. في كل الأحوال، ستتصل هي ثانية خلال الأسابيع المقبلة.

فكرت في أن هذا التليفون، القابع على الكومود المجاور للسرير، عديم الجدوى.

لقد غادرت فرنسا منذ وقت أطول من أن أتذكر أحدًا.

* جادة عريضة ذات جوانب مشجرة.

عبثًا حاولت التفتيش عمّن أتصل به، كلا، قطعًا لم يكن هناك أحد. لا شيء سيربك سير نهاراتي.

غير أن جزعي كان يتزايد ابتداءًا من الساعة السادسة مساءًا لدرجة أنني كنت أقول لنفسي : استطيع دائمًا الإتصال بتلك المرأة التـــي تركـــت لي رقم هاتفها. كنت قد دوّنته على قصاصة ورقية أودعتها درج الكومود المحاذي للفراش.

أفـــتح الدرج. أراجع الرقم. أوتوي ١٥ – ٢٨. حفظته غيبًا. ثـــم إن (جورج غريمر) هذا قد يتصل بي أيضًا ليطمئن أن كل شيء على ما يرام. والمرأة قالت انها ستعاود الإتصال. لست في حالة يرثى لها فعلاً.

بعـــد الظهر، استقل المترو باتجاه محطة (بورت دوفانف). وأنزل في

(مونبارناس)، من هناك أصل إلى حديقة (اللوكسانبورغ) والحي اللاتيني بعد مروري بشارعي (رين) و (فوجيرار).

استمرت سماء يناير الزرقاء وشمسه.

أتسـكع فـــي مكتبات ومقاهي (بولفار سانت ميشال) حيث يطمئنني منظر الطلبة. أنا أيضًا كنت أود لو أحمل شنطة مدرسية، وأحضر صفوفًا، ويكون لي جدول حصص.

كان باستطاعتي الذهاب إلى الضفة اليمنى نحو (الشانزيليزيه) أو (الـــبولفارات الكبرى)، لكن، في تلك الأيام، كنت أفضل ذلك الحي. ففي النهاية، كان معظم روّاده في مثل سني.

غالـبًا ما كنت أدخل السينما مرّتين في اليوم، فأؤنس وحدتي وأنا جالسة مع الآخرين، مساءًا، في صالات شارع (شمبليون) الصغيرة، قبل أن يبدأ الفيلم مباشرة.

لكـن، كـان ينتابني قلق شديد وأنا أخرج من السينما، فعليّ اجتياز طـريق العودة : شارع (فوجيرار) و شارع (رين)، حتى (مونبارناس).

ويتعاظم القلق أكثر فأكثر خلال المسافة التي أقطعها وأنا في المـترو، فـي مقصورة شبه خالية. كنت أشعر وكأن مشغل ذلك الجـورج غريمر يقع في آخر العالم، ويترسخ داخلي هذا الشعور وأنـا خارجة من محطة (بورت دوفانف)، وخلال الدقائق القليلة التي عليّ أن أمشيها.

عـاد جـوّ الشـتاء بعد تلك الأيام الأولى المفعمة بالشمس و السماء الزرقاء.

فاقمـت رتابة يناير وصقيعه من حنيني، وبدا لي كل من هم فـي مـثل سني والذين أحاول أن أذوب بينهم في المقاهي ودور السـينما الصغيرة، غرباء. أو بالأحرى، كنت أنا الغريبة. اسمعهم يـتكلمون فـلا أفهم لغتهم وأؤكد لنفسي أنهم بدورهم لن يفهمونني بسهولة.

أحاول أن أفسّر أحاسيسي تلك، أنا التي لم أكن انعزالية طوال حياتي.

بـدأ هـذا مـنذ كنت في لندن، في اليوم التالي لصرفي من الخدمة في (باركرز). فقد تعودت خلال عام ونصف العام، على

العمـــل في محل كبير. لم أكن أحب هذا العمل كثيرًا، لكن لماذا أصـــبحت كـــل الأيام فارغة من دونه. نعم، لقد بدأ ذلك في لندن، وحتى قبل أن أترك (باركرز).

كان قلقي يبدأ مع هبوط الليل. فقد بدت لي باريس، في تباين عتمتها وأضوائها أصدق من تلك الأيام التي يغشاها الضباب حتى ليتســـائل المـــرء إن كان الجو نهارًا فعلاً، ويشعر باللون الرمادي يكتسحه، ويمحوه بعض الشيء.

لـــم أعد أغادر المشغل قبل هبوط الليل. أدير الترانزستور أو الغرامافون لأقضي على الصمت الذي يعذبني وأتناول عرضًا أي كـــتاب مـــن الكتب العديدة التي تحتل الأرفف المثبتة على الحائط الخلفي. لكنني لا أطفيء الترانزستور أو الغرامافون أثناء القراءة.

كانـــت الكتـــب كلهـــا عـــن السفر والبلدان البعيدة و الجزر الضائعة. كتيبات ارشاد سياحي، تصاميم وخرائط بحرية. كان من الممكـــن جـــدًا الـــبقاء طوال اليوم في ذلك المشغل في (بورت دوفـــانف)، والسفر إلى كل انحاء العالم. كانت معنوياتي تتحسن مـــع القراءة مما كان يشجعني على التخطيط لمشاريع سفر. ففي الـــنهاية، كنت حرة في الرحيل إلى أي مكان أريده، لكن كمرحلة أولى، لم أكن أنوي الرحيل بعيدًا جدًا.

أغـــادر المشـــغل فـــي حوالي السادسة مساءًا. أول نوبة هلع حقيقـــية تعرضـــت لها في المترو. كنت قد قررت ذلك المساء أن أتجـــول فـــي حي آخر. فقد كان الطريق المعتاد الذي أسلكه مشيًا علـــى الأقـــدام عـــبر شـــارعي (رين) و (فوجيرار) يصيبني

بالـــوتر. لابد أن السبب كان هو المرور كل يوم بالشوارع ذاتها لأصل إلى الحي اللاتيني الذي يبدو لي رماديًا أكثر يومًا بعد يوم.

نزلـــت في (مونبارناس)، متجهة إلى محطة الشانزيليزيه. تبعت الرواق المؤدي إلى (بورت دولا شابل) كما تشير علامات الإرشاد. تهت وسط جموع ساعة الذروة. كان علي السير مباشرة وإلا تعرضـــت للدهـــس. كانـــت الجمـــوع تتدفق على مهل وكنا محشـــورين والرواق يضيق مع اقترابنا أكثر فأكثر من السلّم الذي يقـــود إلى الرصيف. لم يعد باستطاعتي التراجع، وأحسست أنني أذوب في هذا الجمع الذي تركته يقودني. وشعرت بأنني قد أختفي تمامًـــا قـــبل أن أصـــل لآخـــر الرواق. قلت لنفسي عندما بلغت الرصيف أنني لن استطيع التملّص منهم أبدًا. دفعتني الجموع إلى داخـــل إحـــدى العـــربات. ثـــم جعل تدفق المسافرين الذين كانوا يتزايدون عند كل محطة يقذفني أبعد فأبعد نحو الداخل.

توقف المترو. دفعوني لكنني استطعت التملّص عندما تركت الخارجيـــن من العربة يقتادونني معهم إلى الخارج. وجدت نفسي في الهواء الطلق.

عـــدت حـــية مـــن جديد، وجعلت أردد اسمي واسم عائلتي وتاريخ ميلادي بصوت عال لأقنع نفسي بأنني أنا.

بـــدأت أمشي على غير هدى. لحسن الحظ، كان الليل قد هبط وبـــرد الهواء. أراحني وضوح الأضواء ولمعانها وتتابع اشارات المـــرور الحمراء والخضراء في فواصل منتظمة. خرجت فجأة،

بســبب تلــك الليلة وهوائها البارد من حلم بشع، مشيت خلاله في تربة موحلة.

أصــبح الرصيف الآن صلبًا تحت خطواتي. كان يكفي، حتى أعــود إلــى المشــغل، أن أتجه مباشرة إلى الأمام. لم يكن ذهني صــافيًا هكذا في حياتي، وكأنني تناولت مهدئًا ما. كان هذا يحدث لــي في لندن، في فترة بعد الظهر لدى (باركرز)، حتى أتناول فيتامين سي عندما يتعبني الوقوف.

فجــأة، أصــبحت أنعم بحسّ غامض في معرفة الإتجاهات. سلكت الشوارع قدمًا، لاحقًا، عرفت اسماءها : شارع دكتور رو، شــارع دوتــو. كانــت لــديّ القناعة التامة بأنه الطريق الأقصر للوصول إلى المشغل.

وصــلت إلــى ســاحة هادئــة كأنها ساحة قرية صغيرة في الأقالــيم، ساحة (ألوري). أحد المقاهي لايزال مضاءًا. دخلت. طلبــت مارتينــي. لا أعرف لم خطر على بالي هذا الاسم. وكأنه أحد ذكريات الطفولة.

ابــتداءًا مــن ذلك المساء، لم أعد أجرؤ على ركوب المترو. كــان علــيّ مغادرة المشغل فور حلول بعد الظهر لتجنّب ساعة الذروة. لكن تخيّل التبديل الإجباري في (مونبارناس)، والرواق الطويل..

والأتوبــيس الوحيد الذي يمر في (بورت دوفانف) لا يغادر أحياء الضفة الشمالية ويتابع الطريق الذي وددت من الآن فصاعدًا تجنبه : شارعي (رين) و (فوجيرار).

عدت في اليوم التالي، فور حلول بعد الظهر إلى مقهى ساحة (ألوري). لا حاجة للقيام برحلات طويلة في المترو في باريس. فمـــن الأفضـــل أن أبقى بجوار المشغل وألا أتنقل إلا سيرًا على الأقدام، وكأنني أقطن قرية.

من جديد، خلال بضعة أيام، سماء زرقاء وشمس شتوية.

كنـــت أجلس إلى طاولة في ساحة المقهى ويصلني من عمق الصـــالة صـــوت لعبة البلياردو الإلكترونية. أحدهم كان يلعب كل يـــوم مـــن الساعة الثانية إلى الثانية والنصف عصرًا، رجل أسمر يـــرتدي بلوزة بيضاء ويعمل في العيادة المجاورة. يغادر المقهى عـــند الثانية والنصف تمامًا ويمشي باتجاه العيادة. هذه الدقة أيضًا كانت تطمئنني.

عـــند الثالـــثة يتمدد كلب صاحب المقهى على الرصيف أمام المدخـــل. في نفس اللحظة تقريبًا، تنفتح بوابة المطبعة في الناحية المقابلة من الشارع لتخرج شاحنة تتوقف أمام المقهى وينزل منها شابان يتناولان كأسًا عند البار. يضع أحدهما قطعة من النقود في صـــندوق الأســـطوانات نســـمع بعدها دومًا نفس الأغنية : (ظل الشـــحوب الأكثر بياضًا). فيذكرني ذلك بلندن، يغادران المقهى. يقـــوم أصـــغرهما دائمًـــا بهـــزّ رأسه لي وهو يبتسم. ثم تختفي شـــاحنتهما عند ناصية شارع (ألوري). بعدها بلحظات، ينهض الكلب ويدخل المقهى. بعد ذلك، وحتى نهاية بعد الظهر، لا أحد.

فـــي نهايـــة أحد العصاري عرفت بالضبط لماذا كنت أسمع أصـــوات حوافـــر الأحصنة في الصباح الباكر. عدت يومها إلى

المشــغل عبر شارع لم أكن أعرفه من قبل. شارع (برانسيون)، رغــم أنـــه كان طريقًا مختصرًا إلا أنني كنت أسلك عادة شارع (كاســتاغناري). ففي الأيام الأولى، لم أكن أمشي أبدًا في الحي فيما عدا خطوات قليلة لأستقل المترو.

في ذلك العصر، مررت في شارع (برانسيون) أمام مسالخ أحصـــنة (فوجيرار). كان ذلك مكتوبًا على سياج على الرصيف المقــابل. بضــعة مقاهـــي مــتجاورة بـــاب إحداها مفتوح على مصـــراعيه. لاحظـــت وجـــود نشارة خشب على الأرض ملوثة بالدماء. يقف عند البار ثلاثة رجال ضخام الجثة وجوههم حمراء يتكلمون بصوت منخفض. أخرج أحدهم من سترته محفظة ضخمة محشـــوة بـــرزم الـــنقود التي بدأ يعدّها بعد أن بلل سبابته بلسانه. تســـاءلت إن كان هؤلاء ممن يذبحون الأحصنة. مررت بعد عدة أيـــام مـــن نفـــس الشـــارع، فـــي الصباح الباكر في موعد سوق الأحصـــنة. تجمّع عدة رجال، بنفس ضخامة أولئك الثلاثة، وبنفس احمرارهم مرتدين معاطفهم على الرصيف أمام السياج.

أنـــا التي أنام عادة حتى الظهر، أصبحت استيقظ مبكرًا أكثر فأكـــثر حـــتى عندما أسهر إلى ما بعد منتصف الليل وأنا أقرأ أو أســـتمع إلـــى الموســـيقى. ذات صباح استيقظت أبكر من المعتاد بقلـــيل. كانـــت الظلمة لا تزال حالكة، وأردت تناول الإفطار في (الترميـــنوس) أحـــد المقهيين القريبين من المشغل، في (بولفار لوفـــبر). هـــناك رأيـــت لأول مـــرة صفًا من الأحصنة. رأيتهم يخـــرجون مـــن الليل ويجتازون (بولفار لوفبر) المهجور. نفس

صـــوت الحوافر، بنفس الإيقاع الذي كنت اسمعه عادة وأنا نصف نائمة و لكن بضجيج أقل.

لم يكونوا سوى عشرة. هذه المرة، كنت أراهم.

علـــى الطـــرف، فـــي مقدمة الصف تقريبًا، رجل يجرّ أحد الأحصـــنة برســـن. رأيـــته في مكان ما من قبل. ربما في محطة المـــترو. كنـــت قد لاحظت أنه يرتدي البنطلون الأبيض المعهود الـــذي يـــرتديه حارس الخيل عادة، والسترة الجلدية ووشاح حول الرقبة. كان ضخمًا ذو شعر أسود ووجه مجعّد. يتقدم الآن وهو لا يزال يشدّ بالرسن ذلك الحصان.

مرّوا أمام المقهى ودخلوا شارع (برانسيون). لم أعد أراهم لكننـــي لم أزل أسمع ضجيج الحوافر وأنا جامدة في مكاني مترقبة اللحظـــة التي لا أعود أسمعهم فيها. كان صاحب المقهى يتأملني مـــن خلف البار. قال لي أن عدد البهائم ليس كبيرًا هذا الصباح، وأنهـــا قـــد وصلت إلى (نويبي) عبر جادة الأشجار. عرفتهم من هيئـــتهم. أحصـــنة سيرك يراد التخلّص منها. هذا يحدث من وقت لآخر. أحصنة عرفت أحياء جميلة وناس أغنياء.

– إطمئنـــي.. فجماعة المسالخ هؤلاء لا يرتادون مقهاي. بل يذهبون لتناول وجبات خفيفة بعيدًا في الشارع. وكان يشير بحركة مبهمة إلى شارع (برانسيون)، حيث توغّل صف الأحصنة.

مـــنذ ذلـــك الحيـــن، بدأت أتجنب شارع (برانسيون). قلت لنفسي في ذلك الصباح أنني لن استطيع البقاء في ذلك الحي. لكن

إلــى أين سأذهب ؟ لم يكن لديّ ما يكفي من المال لأستأجر غرفة أخرى. ولم أكن أريد العودة إلى لندن.

علــى أية حال، حتى لو انتقلت إلى حي آخر، بعيد عن هنا، لن يتغير شيء. سيبقى دائمًا في رأسي مشهد صف الأحصنة الذي يــتقدم في الليل، ويلتف عند ناصية الشارع، وذلك الرجل ببنطلون الحارس وهو يشدّ رسن حصان أسود لم يكن يريد أن يتقدم، وكان ليهرب بالتأكيد، لو استطاع.

حاولت ركوب المترو مجددًا. لكنني لم أمتلك الشجاعة لأكمل بعــد أن بلغــت (مونــبارناس)، فعدت سيرًا على الأقدام حتى المقهى في شارع (ألوري).

كــان يجــدر بــي، مع ذلك، أن استفسر إن كان ثمة محطة للأتوبــيس في الجوار لأصل إلى الضفة اليمنى. لكنني كنت أترك الأيام تمضي دون أن أحاول معرفة ذلك.

اعترفــت أخــيرًا بأننــي أصبحت عاجزة عن التنقل لمسافة طويلة.

فــإذا ابــتعدت كثــيرًا عــن المشغل، أخاف أن أنحرف عن علامــات الإرشــاد التــي وضــعتها لنفسي، فأتشرب ذلك اللون الرمادي شيئًا فشيئًا حتى أمتزج به فأنسى أين أقطن. غالبًا ما أرى نفســي في أحلامي أمشي في شارع – اتسائل إن كان في لندن أم فــي بــاريس – وقــد أضعت طريق العودة إلى المنزل ولم أعد أعرف إن كنت فعلاً أقطن مكانًا ما.

اكتشفت وجود دار سينما بالقرب من المشغل، اسمها (فرساي) في آخر شارع (فوجيرار). أقصر طريق يؤدي إليها يمر ببوليفار لوفيبر. بهذه الطريقة كنت أتجنب المسالخ. أذهب إلى هناك تقريبًا كل مساء في حوالي التاسعة، ولا أهتم اذا اضطررت لمشاهدة الفيلم عدة مرات. أشعر أنني في حال جيدة وأنا في أحد المقاعد الخلفية حيث أجلس دائمًا. أكاد أنسى أن السينما تقع في حي المسالخ. لماذا لم يخبرني الرجل النمساوي في لندن أنه يقطن في هذا الحي ؟

أعتقد أنني لو كنت أعرف مسبقًا، لما قبلت الدعوة. لكن الآن فات الأوان. كنت أعود إلى المشغل بعد عروض السينما من نفس الطريق. تمتد على الرصيف المقابل كتل من البنايات نوافذها معتمة، فيما عدا شقة في الطابق الأول كانت دومًا مضاءة. شخص ما كان دون شك يقرأ أو ينتظر زيارة، شخص كان من الممكن أن أتحدث معه. فهمت الآن أن من الأفضل إلا يظل المرء لوحده وأحسست بالخوف من استيقاظي فيما بعد على صوت حوافر الأحصنة. هو قطعًا مسموع أكثر من هذه النافذة المضاءة حيث بالإمكان رؤية الأحصنة وهي تمر. منذ سنين وهذا الشخص الذي يعيش هنا، وكل الآخرين الذين تطل نوافذهم على (البوليفار) يرون، مثلي، الأحصنة وهي تمر عند الفجر. رغبت أن أعرف ما يشعرون به تجاه ذلك. كنّا قلّة يعرفون، من بين ملايين من الناس يعيشون في هذه المدينة.

شـــارفت علـــى شـــارع (برانسيون). كان خاليًا وصامتًا. المقاهـــي مقفلـــة فـــي هذه الساعة. كنت أذكر كل التفاصيل التي أعطانـــي إياهـــا صـــاحب مقهى الترمينوس : " القتلة "، كما كان يقول، يذهبون بعد انتهاء عملهم لتناول وجبة خفيفة أمام المسالخ، هناك حيث وجدت النشارة الملوثة بالدماء.

الـــرجال ذوو المحافظ هم تجار الأحصنة، الجزارون. أما " القـــتلة "، فيلزمهم بالكاد عشر دقائق لقتل حصان. الباقون يبيعون ويشـــترون الـــبهائم أيـــام الإثنين والخميس يدفعون نقدًا دائمًا ولا يخـــرجون النقود من محفظاتهم فقط، بل أحيانًا من علب للأحذية مليئة بها أو من مناديل طعام يلفون بها رزم المال ساعة الإفطار، وكـــل هـــذا مـــع رائحـــة الـــدم، الدم المتخثر على أحذية القتلة ومريولاتهم.

لـــم تكـــن الأحصنة تأتي من (نويي) فقط، ولكن أيضًا في شاحنات، أو في السكك الحديدية، وأصوات الحوافر التي تتصاعد فـــي الصـــباح، كانـــت تخص أيضًا البهائم التي يتم إخراجها من اسطبلات الحي.

هـــذه الاسطبلات حيث كانت الأحصنة تنتظر، كانت هنا، في كل مكان، وفي كل الأطراف.

تـــبدأ حـــركة الـــتجار في الرابعة فجرًا. الشاحنات، عربات الســـكك الحديديـــة، رزم الأمـــوال التي يتبادلونها على طاولات المقاهي..

كـــان الرجل ذو البنطلون الأبيض الضيق والسترة الجلدية قد ظهـــر فـــي الحـــي السنة الماضية. يأخذ بعض النقود مقابل اتمام عملـــه. لا أحد يعرف من أين أتى. ربما من (كامارغ). يطلقون عليه اسم " الحارس ". شرح لي صاحب (الترمينوس) كل ذلك، بصـــوت خافت ناعم، متهدج بعض الشيء، يخرج من فمه كخيط رفـــيع من الماء الفاتر. بدا وكأنه يحدث نفسه وقد نسي وجودي، وعـــندما نهضت لأخرج، تابع حديثه المفصّل، لكنني عجزت عن متابعـــته. شعرت بالرغبة في استنشاق الهواء، في مغادرة باريس لأجد نفسي على شاطيء بحر أزرق، كذلك الرجل النمساوي الذي سلّمني مفتاح مشغله دون أن ينبهني لشيء.

أصـــبحت أمضـــي وقـــتًا أطـــول فأطول وأنا أقرأ أو أستمع للاســـطوانات، وأنا أقول لنفسي أنني لم أنتهي وحيدة على أبواب بـــاريس بالصدفة. لقد وصلت إلى حدود ما، وكأنني في ترانزيت لبعض الوقت وسأعبر الحدود قريبًا لأعيش حياة جديدة.

كل تلك الكتب على أرفف المكتبة تلهم بالرحيل.

لـــم يعـــش النمساوي هنا إلا كمسافر بين موعدي طيران، لم يكن المشغل بالنسبة له غير محطة لم تتح له الوقت لإدراك كل ما يحدث حوله في الحي..

ومـــن ناحية أخرى، لو لم أكن قد سمعت عند الفجر ضجيج الحوافر، لكان هذا المكان ملجأً حقيقيًا لي.

في الباحة، درج المنزل الصغير، تم نسيان تمثال نصفي من الطين لامرأة، وقطعة حجر كبيرة نصف منحوتة لا شك أن نحاتًا ما كان يقطن هنا. شجرة في وسط الباحة.

فـــي الربـــيع، كـــان التمدد على السرير يسمح برؤية أوراق الشجر تتهادى بهدوء خلف النافذة الزجاجية.

كنت أنتظر مجيء كل عصر بثقة لأسير حتى ساحة ألوري. كانـــت اللحظـــة الوحـــيدة خـــلال اليوم التي أشعر فيها بنوع من الارتياح، كما في صالة السينما في شارع فوجيرار.

هـــناك، فـــي المقهى، كل شيء يتكرر بدقة الساعة. صوت البلـــياردو الإليكترونـــي، الـــرجل ذو السترة البيضاء في عبوره للســـاحة عند الثانية والنصف بالضبط متوجهًا إلى العيادة، الكلب الممدد على الرصيف أمام المدخل، الشاحنة المتوقفة، الشابان أمام البار وابتسامة أحدهما لي وهو يغادر.

لا شـــك أن ذلـــك كـــان دليلاً على أنني بدوري، في مكاني المناسب في تلك الساعة، بين الآخرين في المقهى. وفي كل مرة، يضع أحد الشابين صاحبي الشاحنة في صندوق الاسطوانات أغنية " ظـــل الشـــحوب الأكـــثر بياضًا ". وكأنه اختار هذه الأغنية لي خصيصًا. في البداية، كنت استمع إليها بشرود.

لا شـــيء غـــير موســـيقى آتية من الداخل، كطنين البلياردو الإلكترونـــي، إحدى تلك المقطوعات التي تهدهدك لتجعل وحدتك عذبة تقريبًا.

تذكّرني، وأنا أسمعها، بتلك الصباحات التي كنت استيقظ فيها باكــرًا جــدًا وأســلك (لادبــروك غــروف) لأصل عملي عند (باركــرز). كان العمل لدى باركرز متعبًا لكن لحظات الضجر هــذه تنفصل في ذاكرتي عن بقية اليوم. كانت بمثابة هدنة ووعد حتى في الشتاء عندما يكون الفجر مظلمًا. وفي أيام الربيع الأولى، عــندما تعــود للأشجار أزهارها البيضاء والزهرية. أسقطت من ذاكرتــي (باركــرز) وكل ما يتبقى من اليوم حتى لم يعد هناك غير تلك اللحظات الصباحية التي أسلك فيها (لادبروك غروب) ســيرًا على الأقدام في الظلمة أو في الشمس. وأنا أشعر أن شيئًا جــيدًا سيحدث لي. ثم ذكّرتني الموسيقى بذلك العصر حين ذهبنا تنتنزه، رونيه وأنا، ومعنا الكلب. قبل رحيل رونيه بعدة أيام. كان نهار سبت، يوم السوق في (بورتوبللو).

كنــت في إجازة لن تفيدني في شيء، فرونيه سيرحل. كنت خائفــة مــن كــل الأيام الطويلة الخالية التي عليّ أن أقضيها في غيابه.

نهــار سبت مشمس. عند أول طريق (بورتوبيللو)، بمحاذاة المدرســة القديمــة، وقف وسط الشارع شاب ضخم وبيده كاميرا رولينيكس. مصوّر متجوّل. في تلك الأثناء، لم يكن هناك كثير من الناس، فاقتنصنا.

أخذ صورة لنا نحن الثلاثة وناولني ورقة تحمل رقمًا، طالبًا مني احضارها الأسبوع المقبل إلى ستديو التصوير الذي يعمل فيه اذا كنت أريد الصورة.

ثـــم دخلنا المدرسة القديمة التي تحولت إلى مكتبة تبيع الكتب المســتعملة. اخــتار (رونــيه) بعــض الكتب وتابعنا السير في (بورتوبيللو) بين جموع السبت. في الأسبوع التالي كان (رونيه) قــد رحل. قررت أن أذهب لأحضر الصورة. كان الستديو بعيدًا، في (هامر ثميس). استقليت المترو واضعة الورقة في مظروف حــتى لا أضيعها. ستكون هذه هي الصورة الوحيدة لي و لرونيه معًا.

هناك أشخاص يطلعونك على صور لهم في ألبومات، صور أخــذت في كل لحظة من لحظات حياتهم. هم محظوظون بوجود آلة تصوير بمتناول أياديهم دائمًا، تقوم بمقام شاهد عليهم. لم نفكر في هذا أبدًا، رونيه وأنا. كنا نكتفي بأن نحيا يومًا بيوم.

كــان عليّ أن أمشي طويلاً في (كينغ ستريت) بعد محطة المــترو لأصل إلى الستديو. خشيت أن يكون مغلقًا، لكن لا، تتالى العديــد من الزبائن إلى المكتب الذي يقف وراءه رجلان أسمران يناولانهم صورًا أو يستلمان منهم أفلامًا للتحميض.

أعطيت أحد الرجلين ورقتي. ألقى عليها نظرة شاردة وتركها في يده بينما تابع الاهتمام بالباقين.

ســألته إن كان يمكنني الحصول على صورتي. أجابني بنبرة جافة :

– لست أنا الذي يسلّم هذه الصور، عليك الانتظار.

بقيــت هــناك، واقفــة، بينما يدخل الآخرون إلى الستديو، يتقدمون إلى المكتب، ويستلمون صورهم مقابل تذاكرهم. الأسمر

لم يعد حتى ممسكًا بورقتي. كان باستطاعتي الجلوس على المقعد في نهاية الستديو حتى ساعة الإغلاق، لكن بقائي عند طرف المكتب كان أفضل، خشية أن ينسونني وسط تدفق الزبائن الداخلين والخارجين.

حاولت من جديد جذب انتباه الأسمر بأن ناديته لكنه تصنّع عدم السماع وتجنّب نظرتي. تسائلت أين وضع ورقتي.

بذلت جهدي في أن أبقى قربه قدر المستطاع، وأن لا يفارقه نظري.

أسمر في الثلاثين، يبدو عليه التعالي. استخدم نبرة باردة ولبقة ليقول لي " لست أنا الذي يسلّم هذه الصور ". انتهزت الفرصة في لحظة خلا فيها المكتب من الزبائن وسألته مجددًاإن كان يستطيع اعطائي صورتي.

أخرج بحركة متراخية الورقة من سترته. لو لم أسأله ثانية، لكان تركها في جيبه دون شك ثم مزقها لاحقًا. ألقى نظرة شاردة على الرقم المكتوب على الورقة. استدار وبحث في خزانة تصطف فيها المظاريف تباعًا.

جعل يحركهم بالتتابع بحركة رشيقة من يده ولاحظت أنه كاد ينتهي. قام بذلك بسرعة شديدة حتى شعرت أنه لا ينظر حتى إلى الأرقام المدونة على المظاريف. ثم استدار نحوي :

– لا يوجد مظروف بهذا الرقم. ناولني الورقة بابتسامة باردة. سألته إن كان متأكدًا وهل يستطيع التأكد ثانية.

– كلا. كلا. لا يوجد مظروف بهذا الرقم.

لكنني كنت متأكدة من أن الصورة هناك، في أحد تلك المظاريف.

واتتني الشجاعة ثانية لأقول له :

- ألا استطيع التأكد بنفسي ؟

- أكرر لك. لا يوجد مظروف بهذا الرقم.

أصبحت النبرة أشد جفافًا، والنظرة أبرد، لدرجة أن هذا الشاب بدا وكأنه لا يراني.

كنت لا شك غير جديرة بأن أتلقّى منه نظرة. أدركت أنه لم تعد هناك فائدة.

في الشارع، تفحصت الورقة من جديد. رقم ٣٢.. في الظروف العادية، لم أكن لأعير أهمية لما حصل معي للتو. ولا لصوت ذلك الشاب الذي كان لا يزال يدوي في رأسي كحكم بالإعدام. لو كان (رونيه) معي، لكنا استطعنا الحصول على الصورة. لكان الشاب غيّر نبرته فورًا. أردت فجأة أن أعود إلى الستديو وأقول له : " صديقي سيحطم وجهك إن لم تعطني الصورة ". لكن ثورة الغضب هذه سرعان ما انطفأت وبدت لي تافهة. لم يعد (رونيه) هنا. وفرصة أن أراه ثانية كانت ضئيلة. سقطت كل اللحظات التي قضيناها معًا في الفراغ. أرادو محو الأثر الوحيد لوجودنا، (رونيه) وأنا والكلب، الصورة الوحيدة التي تجمعنا.

تابعت طريقي في (كينغ ستريت). لم أعد واثقة من شيء، كان الرصيف يتوارى تحت خطواتي ويتمايل، وكأنني أعبر جسرًا

إلى باخرة والبحر هائج. نعم، ذلك الشاب الأسمر، بصوته الرنان ونظـرته المحـتقرة رمانا تحت الحافة أنا و (رونيه) والكلب. حلمـت بذلـك في الليالي التالية، فكنت استيقظ مذعورة وأتطلب بعـض الوقـت لأقتنع بأنني لست أغرق، وأستعيد أنفاسي. أرى مجـددًا ذلـك الشاب وراء المكتب. لماذا لا أعود إلى ذلك المحل وأفسـر له بهدوء أنني أحتاج لتلك الصورة وأنني جاهزة لأدفع له ثلاثة أضعاف ثمنها شرط أن يعطيني إياها ؟

كنـت مستعدة لأي شيء مقابل أن يعطيني إياها. لكنني كنت أتراجع وأقول لنفسي أن لا حاجة لذلك. الأمر فعلاً ميئوس منه. لا شك أن انطباعي الأول كان صحيحًا : هذا الشاب لا يحب النساء. كشـفت ذلك من نظرته، من نبرة صوته الرنانة، من شيء مقلق فـي شـفتيه. كان (رونيه) قد حدثني عن هذا النوع من الرجال الذيـن تـبدو لهـم النساء كأنهن غير موجودات بالنسبة إليهم. لا يحـبون العلاقة مع المرأة. ولا يجرؤون على إقامتها مع الرجل. لماذا ؟ شرح لي (رونيه) أنهم يحافظون على عفتهم. بسببهم تقع الحـروب. هـتلر كـان مـنهم، حسـبما قال (رونيه)، وكذلك (روبيسـبير). كـان ينوي إصدار كتاب عن هذا الموضوع وقد جمـع مسبقًا الوثائق والصور. في هذه الصور، ظهر شباب تبدو القسوة على وجوههم، وكأنها منحوتة من الحجر، يسميهم رونيه " النسـاك الجـنود ". شقر، صدورهم عارية مصقولة، يسيرون في صـفوف، آخـرون سـمينون، مرد، حليقو الرؤوس، في إحدى

الصور، يحطمون زجاج إحدى الواجهات ويجبرون الناس على لمّ شظاياها.

يـــرتدي رئيسهم سروالاً قصيرًا من الجلد التيرولي رغم أنه رجــل كبــير ناضج، له كرش ووجه ليّن وحازم في نفس الوقت. كـــان يبتسم وهو يتأمل التعساء الراكعين يغسلون الرصيف. شرح لـــي (رونيه) أن هذا الرجل الضخم بتول، وأنه سيموت عجوزًا جــدًا وســط رائحـــة الجلد والرماد البارد، دون أن يكون قد خبر الحب في حياته.

تســـائلت عمّـــا قد يفعل ذلك الأسمر بصورتنا. سيمزقها في النهاية. أو سينساها بين مجموعة الأفلام الأخرى التي لم يأت أحد لاستلامها أو التي رفض هو أن يسلّمها إلى بعض الزبائن، مدعيًا أنه " لا يوجد مظروف بهذا الرقم ".

في الحقيقة لم يكن تصرفه بدافع الشر، وإنما ربما بدافع الملل واللامـــبالاة، فعمله خلف ذلك المكتب كان رتيبًا بنفس درجة رتابة عملـــي لـــدى باركــــرز. وتحمّلت أنا النتيجة. جئت في وقت غير مناســـب، كـــان مـــن الممكن أن يحدث هذا لأحد غيري، كما في اليانصيب حيث لم يكن الرقم ٣٢ هو الرقم الجيد.

عـــدت أدراجـــي مـــن (كينغ ستريت) ومشيت حتى محطة المـــترو والرصـــيف مـــازال ينزلق تحت قدميّ. كل شيء تغيّر بالنســـبة لـــي منذ ذلك المساء. تصدّعت حياتي فجأة بعد أن كانت ملساء من قبل عندما لم يكن شيء قد خدش ثقتي بعد.

لاحظت ذلك في الأيام التالية عندما كنت أمرّ في (بورتوبلّو) حيث أخذ لنا المصور صورة، (رونيه)، أنا والكلب.

كان ذلك اليوم الذي أخذنا فيه الصورة كأيام السبت الأخرى، والكلب يمشي كعادته بيننا.

كان سيبدو في الصورة، على اليسار، مدخل المدرسة القديمة حيث اشترى (رونيه) بعض الكتب المستعملة، وربما، في الخلفية، كان سيظهر شبح أحد المارين وتقاطع الشارع مع (شبستو فيلارز)، والمنحدر نحو محلات التحف، والدليل للمستقبل على أننا، ذات يوم سبت صيفي، في (لندن)، عصرًا، مررنا في هذا الشارع، (رونيه)، الكلب، وأنا.

في أول سبت عدت فيه إلى نفس المكان لوحدي، كان هناك مزيد من الناس. لم يكن المصور هناك يومها ولا في أيام السبت اللاحقة التي حاولت فيها أن أجده لأستفسر منه وأحصل، بمساعدته على الصور، عندها فقدت ثقتي بنفسي نهائيًا.

شعرت بأنني لم أعد موجودة في ذلك المكان ولم يعد لي مكان فيه. كنت أتأمل الآخرين بحسد وهم يمشون بخطاهم الواثقة. لم يكن الرصيف يوشك أن يختفي من تحتهم.

نحن أيضًا، أنا و (رونيه)، عندما كنا نتنزه كانت هذه الشوارع والحدائق مألوفة لدينا لدرجة أنها كانت جزءًا منا.

أما الآن، فالصلة قد انقطعت، كنت أشعر في كل تلك الأماكن وكأنني أعود إليها بعد مماتي. في أول فترة، لم أعد أجرؤ على

مغـــادرة غرفتي، لكن بعدها، توقف الرصيف عن الإنزلاق تحت قدميّ وإصابتي بالدوار.

فـــي ذلـــك الصيف، توقفت نوبات القلق بل بالعكس شعرت بـــنوع مـــن الإرتـــياح. أصبحت أقوم بنزهات طويلة مساءًا في الأحياء المهجورة حول (هولاند بارك) حيث كان من عادتنا أن نتـــنزه معًـــا. لكن بدا وكأنني عرفت (رونيه) والكلب في حياة أخرى. رغم كل محاولاتي في العودة دائمًا إلى

تلـــك الأحياء والحدائق وزحمة أيام السبت في (بورتوبلّو)، إلاّ أنني لم أعد أستطيع أن أحيا تلك اللحظات مجددًا.

أصـــبحت أقصـــد مقهـــى ساحة (ألوري) في نحو الحادية عشـــرة صـــباحًا. أقوم بدورة طويلة حتى أتجنب شارع المسالخ. الأرجـــح أنهم في هذه الساعة يتناولون وجبتهم الخفيفة، بأحذيتهم ومريولاتهم الملطخة بالدماء، ومحافظهم الكبيرة.

فـــي ساحة (ألوري)، كان الزبائن مختلفون عن زبائن بعد الظهر.

كنا أنا ورجل ثلاثيني يصحح أوراقًا الوحيدان في المقهى قبل ساعة الغذاء. ثم سيصل الآخرون. عمال شركة مجاورة. يسمّيهم صاحب المقهى " جماعة التليفون "، لم تكن الطاولات تكفيهم أبدًا، وكان يجب إفساح المكان لهم. يتكلّمون بصوت عال جدًا.

بالنســـبة لـــي، لا أذكـــر مناســـبة واحدة، خلال عملي لدى (باركرز)، تناولت فيها وجبتي مع زملائي. لم أصادق إلا النادلة

الشــقراء التي كانت تخدم صف الطاولات المجاور. أرافقها أحيانًا إلى السينما.

ذات صــباح، قــبل أن تجــتاح " جماعة التليفون " المقهى، جلســت إلــى الطاولة الأقرب لتلك التي يجلس إليها الرجل الذي يصحح أوراقه.

رفــع رأســه باتجاهــي. رجل ذو تقاسيم وجه عادية، عيناه غائــرتان في محجريهما، ورأسه حليقة مع بداية صلع. سألني إن كنــت طالبة. منذ وصولي إلى باريس، لم يوجه لي أحد الحديث. أوحــت لــي نظرته وصدى صوته بالثقة. نظرة صادقة، وصوت غليظ منخفض، وكأنه خال من النوايا. أجبت بالنفي.

أخبرنــي أنــه محاضر في مادة الفلسفة، في إحدى ثانويات ضــواحي باريس. يذهب إلى المدرسة بسيارة أجرة ثلاث مرات في الأسبوع، ويعود بالقطار الذي يتوقف في محطة (مونبارناس). شرح لي أن مقالات طلابه كانت سيئة جدًا لدرجة أنه كان يفضل أن يصححها في المقهى وليس في بيته حيث يكون وحيدًا، لكنه لا يلومهم. هذه هي الحال. وأنا، هل تلقيت تعليمًا ما؟

كنــت أشعر بوحدة شديدة خلال الأسابيع الأخيرة لدرجة أنني احتجــت لا للوثوق بأحد، بل لمجرد التحدث معه، وبد هذا الرجل وكأنه يهتم بكل ما قد يقال له، ربما بسبب مهنته كمدرس.

أخبرته أنني أتيت من لندن وأن أحد الأصدقاء أعارني غرفة غــير بعــيدة عن هنا، وبأنني أشعر قليلاً بالضياع في هذا الحي الغريب.

إســتمع إلى كلامي مثبّتًا نظره عليّ، وكأنه أراد، عبر تركيز انتباهه، أن يدرك تمامًا ما يدور في رأسي. نظرة كاهن أو طبيب.

- ربما كنت على حق، قال لي، إنه حي غريب..

وقــع بصري على إحدى الأوراق أمامه. لاحظت الكثير من الجمــل المســطّر تحــتها بالخط الأحمر، وفي الهامش، علامات استفهام بنفس اللون.

- أنــا أعيش في الحي منذ زمن طويل.. مازلت أقطن شقة أمي القديمة في بولفار لوفيبر. ناحية الكنيسة.

كنــت أمــر أمــام تلك الكنيسة عند أثناء من السينما. كنيسة حديثة لم أستطع الجزم، بسبب العتمة، إن كانت مبنية بالأسمنت أم القرميد.

ربما كانت غرفته هي تلك التي أراها مضاءة كل ليلة.

- اسم الكنيسة (سانت انطوان دوبادو). كان من المستحيل أن يكون لها اسم آخر.

حــدّق بــي بــنظرته الصادقة فخفضت بصري مجددًا إلى الورقــة التي صححها للتو. تخيلت جملة " (كنيسة سانت انطوان دوبــادو)، كان من المستحيل أن يكون لها اسم آخر " مكتوبة في الهامش باللون الأحمر.

- هــل تعرفين ماذا يطلب الناس من سانت انطوان دوبادو ؟ أن يجدوا أشياءهم الضائعة.

كان يبتسم لي وكأنه أدرك أنني أضعت شيئًا. لم أؤمن طوال حياتــي بالخــرافات، لكننــي لو كنت عرفت لماذا يستعان بسانت

انطوان دوبادو، ولو كان في لندن كنيسة باسمه لكنت قصدتها وصلّيت لأستعيد الصورة.

- بالقرب من هنا، في شارع موريلون، توجد مصلحة يجمعون فيها كل المفقودات، ثم هناك مستودع الحيوانات التائهة في (دانتسينغ).. إنه حيّ يقصده الناس دائمًا للتفتيش عن شيء ما.

لم تكن لهجته وهو يمدّني بتلك التفاصيل، لهجة مرشد يقودك في باريس، بل كانت لهجة مدرس فلسفة. وهذا الصوت المنخفض أوحى لي بالثقة. أردت أن أكلمه عن الأحصنة. لم أجد الكلمات. خفت أن أتلفظ بها.

- ومن ثم، هم يهتمون هنا بالأحصنة منذ مئة عام.

دائمًا ذلك الصوت الهاديء. وابتسامة حتى، وكأن الموضوع بديهي

: الإهتمام بالأحصنة.

- عندما كنت صغيرًا، تعلمت بمدرسة قريبة جدًا من هنا.. ثم دخلت

ليسيه بوفون. عشت طوال حياتي في هذا الحي.

قال منذ مئة عام. هذا يعني إذًا أن المئات ومئات الألوف من الأحصنة اجتازت بولفار شارع برانسيون.

- تبدين في غاية الشحوب.. أتودين تناول مشروب ؟

الآن، بـــدت نظـــرته سمحة، وكأن ورقتي موجودة هنا على الطاولـــة بيـــن الأطراف الأخرى وقد كتب عليها بالحبر الأحمر عبارة " بإمكانك أن تكوني أفضل ".

أجبـــته بأننـــي علـــى ما يرام. أنا فقط لم أنم جيدًا في الليلة السابقة.

- كيف تقضين أيامك ؟

أمام هذه النظرة، وجدتني من جديد تلميذة فوتت صف بعض الظهر لتذهب إلى السينما، ولا تحمل عذرًا مقبولاً.

كان يجب أن أجد كذبة، وأن ألقيها بصوت قاطع :

- أقضيها مهمومة لأنني أفتشٍ عن عمل.

- أســـتطيع أن أوفر لك عملاً. هل تتقنين الضرب على الآلة الكاتبة ؟

كنـــت، قـــبل أن أرحل إلى لندن وأعمل لدى (باركرز)، قد تعلمـــت الضرب على الآلة الكاتبة في فرع لمعهد (بيجيه) ناحية (بورت دو فانسان) عندما كنت لا أزال أقطن هناك مع والدتي. قلت له أنني أتقن الضرب على الآلة الكاتبة والإختزال أيضًا.

- إذًا، ســـأعطيك نصوصًا نكتبها أنا ومجموعة من الأصدقاء معًا.

كان يبتسم لي ابتسامة كاهن اعترفت له للتو، واعتبر خطاياي تافهة.

- ربمـــا تثـــير هـــذه النصـــوص اهتمامك، نحن نقوم بعمل جماعـــي، ورشـــة تعليمية.. سأكون سعيدًا لو أثار هذا اهتمامك.. سأعيرك آلتي الكاتبة.

أراحتنـــي فجأة فكرة أن يكون لدي مايشغلني فلا أعود أقضي كل تلك الأيام الفارغة دون جدوى.

ســوف أطبع على الآلة الكاتبة، لوحدي، بهدوء، في المشغل، بين الكتب. سأتمكن أيضًا من الاستماع إلى الموسيقى أثناء العمل، بمواجهة النافذة الزجاجية المطلة على الحديقة.

- هذا كتيب من تأليفي. سيعطيك فكرة عن تعاليمنا، وبالتالي عن فحوى النصوص التي سوف تطبعينها.

فـــتش في حقيبة جلدية بنية اللون ملقاة على الأرض بمحاذاة كرسيه. وناولني كتيبًا صغيرًا، غلافه أخضر فاتح مكتوب عليه " استرجاع الذات "، وتحت العنوان : " ميشيل كيروريدان ".

أشار إلى الاسم : نعم.. هذا أنا.

أراد أن أرافقـــه إلى موقف السيارة التي سيستقلها من(بورت دوفانف). كانت محاضرته ستبدأ في أول ساعات بعد الظهر من ذلك اليوم، لذا سيتناول غداءه في كافيتيريا الكلية.

ســـار بمحاذاتـــي، وبـــيده حقيبـــته، فأذهلتني نحافته وطوله والتناقض بين زيه الرسمي وحذاء بسيور كان يلبسه على جوارب سوداء.

تواعدنــا على اللقاء مجددًا في اليوم التالي عند الحادية عشر صـبـاحًا في المقهى. سيجلب لي الآلة الكاتبة والنص الذي يحتاج إلى طباعة.

أردت، عـند عودتــي إلـى المشـغل، أن أقرأ الكتيب الذي أعطانـي إيـاه. وجدت بين الصفحات صورة. تعرفت عليه فيها بـرفقة رجـل في مثل طوله ونحافته وقد أخذت لهما في الجبال. كانا واقفين، متجاورين، وهو يتكيء قليلاً على جذع شجرة. الآخر يحمل كتابًا يبدو وكأنه كان يقرأه بصوت عال. كلاهما يتمتع بجبهة عريضة، ووجه وقور. مكتوب على ظهر الصورة : (ميشيل – جياني. ابريل/ مايو. في روكولونج) .

أحسسـت بنوبة من الحزن والضغينة تنمو في داخلي. لماذا وجـدت في هذا الكتاب صورة شخصين لا أعرفهما بينما اختفت إلى الأبد الصورة الوحيدة التي قد تعنيني.

توقفت عن القراءة بعد عدة صفحات. لم أكن في حياتي قرأت كتاب فلسفة، فصعب على أن أحافظ على تركيزي.

كـان الموضـوع يـدور حـول تعاليم تسمح بالوصول إلى الحكمـة. المعلم هو شخص اسمه " دكتور بود". في الواقع، كان هـناك تكـرار لـبعض الجمل في بداية كل فصل " عندما سألنا الدكـتور بـود عـن معنى تعاليمه.. ".. " في إحدى الاجتماعات اللاحقـة، تطـرّق الدكتور بود إلى مسألة.. "، " من عادة الدكتور بود أن يطرح كمثال.. ".

هل كان (ميشيل كيروروردان) هذا يعرف الدكتور بود شخصيًا ؟ لم يقل ذلك بوضوح في الصفحات القليلة التي قرأتها. في كل الأحوال، حسب (ميشيل كيروروردان)، الحكمة والحقيقة تخرجان من فم ذلك الرجل، ويجب إتباع تعاليمه.

فاجأني هذا السلوك، وبدأت أتذكر أنني لم أكن أعر انتباهي لشرح المدرسين في محاضرات مدرسة البلدة الرسمية، ثم في ليسيه هيلين بوشيه. وحتى قبل ذلك، كنت أنام في درس العقيدة المسيحية.

اكتشفت فجأة، بخجل شديد، أنني لم أتسائل أبدًا عن معنى الحياة. اكتفيت بأن أعيش يومًا بيوم باحثة في الغالب عن المتعة. في البداية، خلال طفولتي، كانت أن أحصل على قطعة من فئة المئة فرنك لأشتري آيس كريم بالفستق من مخبز (نيديليك)، أو أن أصعد إلى " لاقوار دو ترون " في (الغراندويت) لأنني أحب الإحساس بالدوار.

لاحقًا، أيام (رونيه)، كنا نقصد شاطيء البحر في حوالي الحادية عشر صباحًا، ثم أجدني معه بعد الظهر في غرفة جوّها منعش، ومصاريع نوافذها مغلقة.

في الصيف، كنت أحب أيضًا الجلوس في الصباح الباكر جدًا في الساحة المشمسة لأحد المقاهي الخالية.

كنت أحب قراءة الروايات البوليسية والاستماع إلى الموسيقى. وكان الكلاب والأحصنة يشكلون نقطة ضعف لديّ. نعم، قبل رحيل (رونيه) والحكاية القذرة لتلك الصورة، لم أكن

أطـرح علـى نفسـي أسئلة كثيرة. أعدت إغلاق الكتاب. كانت الصـورة قـد انزلقـت واسـتقرت على السرير فتأملتها مجددًا. (كـيروريدان) هذا يتكلم كأستاذ. استمع إليّ بانتباه، لكن، بالتأكيد لم يعن له كثيرًا ما أنا عليه.

في النهاية، سيبدأ بالاكتراث لي لو قبلت أن أتبع ما سمّاه ب " تعاليمنا ".

حاولـت أن أرى إن كـان الآخـر في الصورة ينتعل حذاء بسيور بدوره.

غريب مدى تشابههما.. من المؤكد أن ذلك الرجل، (جياني)، يـتلقى التعالـيم. بدا شكلهما في الصورة ككاهنين، لكنني لاحظت رغم ذلك أنهما يتخذان أوضاعًا للصورة، (كيروريدان)، مستندًا إلـى الشـجرة، ذقنه إلى الأمام، والآخر بظهره المستقيم ووجهه محني فوق الكتاب.

ربمـا كـان ذلك الكتاب هو نفسه الذي بحوزتي، " استعادة الـذات ". تسـائلت إن كانـت هناك نساء في حياتهما أم إن كانا يعيشـان كـل بمفـرده فـي صومعة كصومعة راهب ويكتفيان بالصداقة. هل تفسح تعاليمهما مكانًا للحب ؟

أخـذت أتصفح " استرجاع الذات " بشرود دون أن أجد كلمة حـب ولا كلمـة سـعادة، واعدة نفسي بأن أقرأه بتمعن، لكن في عصر ذلك اليوم، لم أكن أملك الشجاعة لذلك.

وصـل فـي الـيوم التالي إلى المقهى متأخرًا، قبل أن تأتي " جماعـة التليفون " بلحظات لتشغل كل الطاولات. كان علينا أن

نــتكلم بصــوت عــال جدًا حتى نسمع بعضنا البعض وسط ذلك الضجيج.

أحضـــر لي الآلة الكاتبة، جهاز صغير محمول مكسوّ بغلاف بلاســتيكي رمادي اللون. ونص من ثلاثين صفحة، مكتوب بخط منــتظم جدًا بالحبر الأزرق، دون أي شطب، عنوانه " العمل على الذات ".

سألني إن كنت قد قرأت الكتيب، أجبت بأنني لم أكمل قراءته بعد لكنه يبدو مثيرًا جدًا.

حدجنـــي بنظرته العميقة منتظرًا أن أتابع كلامي. تمتمت بأن قرائتــي بطيــئة، وبأنني أتأخر عند كل جملة لأفهمها لأنني لست معتادة على قراءة الفلسفة.

- الموضــوع لــيس فلسفة، قال لي، بل هي مجموعة تعاليم ترشــد الناس إلى حياة أفضل. بعض قواعد السلوك. وإذا أعرت الكتاب القليل من تركيزك ستلاحظين أنه في منتهى الوضوح.

ربمــا سينتهي إلى إقناعي. كنت على درجة من عدم الثبات مــنذ وصــولي إلى باريس جعلتني أرغب في أن أتلقى النصائح والإرشــادات نحــو طــريق أسلكه. لكن هل بإمكان هذا الرجل الجــالس بمواجهتــي في مقهى لا نكاد نستطيع فيه سماع بعضنا الــبعض، أن يساعدني ؟ هل أنا محتاجة فعلاً إلى نظام ما ؟ وما هو بالضبط " العمل على الذات " ؟

فــي الخــارج، كنت أحمل في يدي الآلة الكاتبة وقد أودعت النصّ في جيب معطفي الواقي من المطر.

هو كان يحمل تحت إبطه حقيبته البنية المنزوعة اليد. سلكنا شارع (كاستاغناري) الهادئ والصامت. كانت البيوت ذات الأسقف الواطئة والتي ستزال دون شك قريبًا، تصطف على جانبيه فتشعرك بأنك في حامية صغيرة يتصاعد منها صباحًا صوت حوافر الأحصنة، لكنها تكون كتيبة خيالة لا أحصنة للمسالخ.

– خذي وقتك في طباعة هذا النصّ. المهم أن يساعدك على التآلف مع تعاليمنا.

ابتسم لي من جديد.

– لكنني لا أريدك أن تعملي بدون مقابل.

أخرج من جيب سترته الداخلي محفظة أقل سمكًا من محافظ تجار الأحصنة في شارع (برانسيون) وناولني ورقة من فئة المئة فرنك مطوية أربع مرات. ترددت في أخذها.

– هذه ليست مني. قال لي. انها الصديقة التي نجمع لديها، هي التي أعطتني إياها لأوصلها لك. لقد حدثتها عنك.

في النهاية، لم قد أتردد في قبول هذه النقود ؟

– أعتقد أنه سيكون من المفيد لك، بعد ما تنهين عملك، أن تحضري أحد اجتماعاتنا.

يعقدونها مرة على الأقل في الأسبوع، في شقة السيدة التي حدثني عنها.

كانوا ستة أو سبعة أشخاص في جلسات "العمل على الذات"، نفس عنوان النصّ الذي أعطانيه لأطبعه.

- هل ترغبين في العمل معنا ؟

كان صوته عذبًا لدرجة أكدت لي أن هذا الرجل يريد لي كل خير. أخرج من جيب معطفه علبة سجائر وناولني إياها. علبة (جولواز) زرقاء.

- خذي هذه على سبيل التشجيع.

لم أجرؤ على أن أرفض وأفسر له أنني لا أدخن.

- إذًا، هل يهمك أن تنضمي إلينا ؟ سألني بنبرة مألوفة وحازمة بعض الشيء ولا تشبه نبرة الكاهن، بل نبرة مدرب للياقة البدنية.

وافقت، المرء مستعد لفعل أي شيء لكسر عزلته.

- أنا سعيد جدًا بهذا. سأحدثك أكثر عن نشاطنا في المرة المقبلة.

كان عليه أن يستقل حافلته من شارع (بورت دوفانف). أعطاني موعدًا في المقهى، يو الإثنين التالي، في الساعة المعتادة. إستقل الحافلة بعد أن لوّح لي بيده مودّعًا. لاحظت أنه لم يعد ينتعل الحذاء ذي السيور وإنما حذاء أسود ذي رباط.

أمضيت ثلاثة أيام في طباعة النصّ على الآلة الكاتبة. كنت أعمل قليلاً في الصباح ثم بعد الظهر حتى الساعة الخامسة. لم أكن قد نسيت شيئًا مما تعلمته في دورة (بيجييه).

في البداية كنت أشغّل الموسيقى، تسجيل لجيتارات من هاواي، كنت قد اكتشفتها بين اسطوانات الرجل النمساوي. لكن لاحقًا، قررت أن أعمل في الهدوء لأحاول أن أفهم جيدًا ما أطبع.

وجدت في " العمل على الذات " بعض الجمل التي كنت قد قرأتها سابقًا في " استعادة الذات " ولم أعرها اهتمامًا كبيرًا.

شـــرح لي (كيروريدان) أنهم كانوا عدة أشخاص ينجزون الصيغة النهائية لنصّ " العمل على الذات ". لكن هذا الخط المنتظم بالحـــبرالأزرق كان خطّه الذي رأيته من قبل على أوراق طلابه التي كان يصححها. كنت أطبع بتمهّل وتتكرر الكلمات على مدى الصفحات.

نحن نعيش، كما يبدو، كمن يسير في نومه. كل حركاتنا آلية، وبالتالـــي، خالـــية مـــن أي قيمة. نحن نعيش في رقاد. حركاتنا وأفكارنا وأحاسيسنا تصبح آلية لأننا نحصر أنفسنا في " وضعيات " وحـــركات تكبّلـــنا في أغلال. يجب إذًا الخروج من تلك الحالة، وهذا لايتحقق إلا عبر " استعادة الذات ".

حاولـــت كثـــيرًا التوقف عن الطباعة لإعادة قراءة كل جملة، لكنني لم أتوصل إلى فهم ماهية هذه التعاليم بالضبط.

من المؤكد أنهم يمارسون في اجتماعاتهم " استعادة الذات " أو ما يسمى أيضًا بالعمل على الذات أو العمل فحسب. سأعرف أكثر عن هذا حين يصطحبني (كيروريدان) إلى إحداها.

فـــي الـــيوم الأول لانتهائي من العمل، خرجت نحو الساعة الخامســـة، ولاحظـــت خـــلال سيري طوال شارع (فوجيرار)، اخـــتفاء نوبـــة القلق التي كانت تنتابني عادة في مثل تلك الساعة. اســـتقليت المـــترو من محطة (كونفاسيون) حتى (مونبارناس) وأنـــا هادئـــة تمامًـــا. ثم زرت الحيّ اللاتيني. وجدت مجموعات

الطلبة على رصيف بولفار سانت ميشيل الذي بدت لي فجأة انحناءته في منتهى السلاسة.

استعدت مجددًا حالتي الطبيعية خلال فترات بعد الظهر التي قضيتها في باريس، قبل أن أدرك معنى صوت حوافر الأحصنة. أحسست بالاطمئنان مع هبوط الليل وأنوار مقهى (كلوني) ومداخل دور السينما.

لاحظت في شارع (موسيولوبرنس) وجود مكتبة اسمها (لوزودياك) تضع على واجهتها إعلان " سحر وتنجيم، مذاهب باطنية وتاريخ الأديان.

كانت الكتب مصنفة بحسب اسماء المؤلفين المرتّبة أبجديًا. دخلت.

وجدت تحت حرف " ك " الكتيب الذي أعطاني إياه (كيكوريدان)، " استعادة الذات ". فاجأني هذا الاكتشاف واعترتني حالة عابرة من الارتياح.

في النهاية، لديّ عمل سيسمح لي أن أشغل فترات بعد الظهر الفارغة وأن أشعر بمساهمتي في شيء مهم.

كان جالسًا إلى طاولة في المقهى يصحح أوراق تلاميذه عندما وصلت إلى ميدان (ألوري). وقف يحييني وابتسم لي.

كنت قد اشتريت مظروفًا كبيرًا وأنا في طريقي إليه، وضعت فيه الورق المطبوع والآخر المكتوب بالحبر الأزرق. تفحّص الورق المطبوع بسرعة، ثم وضعه في حقيبته.

– هل أتعبتك الطباعة كثيرًا ؟

أجبته بالنفي، وبأنني أتمنى ألا يكون هناك الكثير من الأخطاء الإملائــية. كانــت نســخ عديدة من أوراق تلاميذه مبعثرة على الطاولــة بتصــحيحاته المكتوبة بالحبر الأحمر، فتساءلت إن كان يستعمل في تصحيحاته نفس تلك الكلمات المتكررة في النصّ الذي طبعــته. " استعادة الذات "، " رقاد "، " آلية "، المشي خلال النوم، " مجموعة "، " وضع "، " عمل "، " حركة "... على كل حال.

- هل فهمت قليلاً ماهية تعاليمنا ؟

قالهــا لــي بمزيج من التسامح المتعجرف واللطف، وكأنني مازلــت غــير جديرة تمامًا بـــ " العمل " في " مجموعتهم ". كان علــيّ أن بمظهــر الفــتاة سهلة الانقياد والمتنبّهة وأن أمنّي نفسي بالأمل.

كــان يــنظر في عينيّ مباشرة. لو كان رجل غيره نظر إليّ بكــل هذا التركيز لكنت انزعجت. لكن (كيروريدان) لم يكن من أولــئك الذين يضغطون على يدك ويحاولون تقبيلك. هل أغرم في حياته بامرأة ؟

- هل يمكنك حضور اجتماع بعد الغد ؟

تفاجئت بسرعة العرض. تخيّلت أن الأشياء ببطء أكثر، وأن " فــترة تجريبية " كانت ضرورية قبل أن يسمح لمنتسب جديد أن يشارك في " عمل " المجموعة. كنت قد قرأت ذلك في النصّ الذي أعطانــي إيــاه لأطــبعه. " فترة تجريبية ". غالبًا ما تكررت هذه العبارة.

- نعقد اجتماعاتنا في الحيّ، قريبًا جدًا من هنا، لدى تلك السيدة التي أخبرتك عنها.هي تدير مجموعتنا. إنها صديقة لدكتور (بود).

تكرر اسم الدكتور (بود) تقريبًا في كل فقرة من النصّ الذي سلّمته إياه منذ قليل مطبوعًا. إعتاد أن يقول لأتباعه : " إنكم دائمًا تنسون أنفسكم.. يجب أن تتذكروا أنفسكم.. يجب أن تستيقظوا ".

كلما كنت أطبع أكثر، كلما بدا لي أنني أسمع صوته، صوت خافت جدًا. حاولت أن أتخيله. في رأيي، كان رجلاً نظرته صافية، تداعبك يداه لتهديء قلقك.

لم أجرؤ على اخبار (كيروريدان)، خوفًا من أن أشعره بالخيبة، بأنني عاطفية، أو بأنني ممن ينعتونهن بصفة طالما بدت لي ظريفة : فتاة ساذجة.

- وحضرتك، قلت له، هل تعرف الدكتور (بود) ؟

- قدّمتني إليه في بداية هذا العام تلك السيدة التي سآخذك إليها.. (جنفييف بورو).

أعطاني تفاصيل أخرى. الدكتور (بود) كان يعيش في باريس. الآن هو يسافر كثيرًا. إستقر في (سان دييجو) في كاليفورنيا. لكنه غالبًا ما يأتي إلى أوروبا للاهتمام بالمجموعات. إلى باريس، وسويسرا، وبريطانيا. تفحّصني للحظة وكأنه يتردد في اخباري بشيء مهم. ثم قرر :

- سيعقد اجتماع في الشهر المقبل مع الدكتور (بود). لدى (جنييف)

أيضًا.. قد تقبل أن تعرّفك به.. هذا رهن للظروف.

أراد دون شك أن يفهمني أنه لا يتم تقديم أحد للدكتور (بود) في أول مرة. كنت قيد التجربة. اجتماع الغد سيقرر مصيري. ربما يخضعونني لامتحان.

جمع أوراقه ورتبها في شنطته التي سحب منها مظروفًا.

- هذا لك.. من (جنفييف بورو).

كان ذلك مبلغا من المال تدفعه لي (جنفييف بورو) سلفًا لأعمال طباعة أخرى سيكلفونني بها بانتظام. حوالي نصّين أو ثلاثة في الشهر سيحتاجونها خلال اجتماعاتهم. هذا يعني أنني أصبحت عضوًا في المجموعة.

كان قد تكلم أمام (جنفييف بورو) عني بشكل إيجابي، وأصبحت هي جاهزة للوثوق بيّ. كان من المعتاد أن يتم دفع مبلغ من المال كل شهر لأعضاء المجموعات الذين يفتقرون لوسائل الرزق، ليتفرغوا للتحضير للاجتماعات.

قلت له أنني فعلاً أشعر بحرج في قبول المال، لكنني لم أشأ أن أفصح له عما يدور عميقًا في ذهني : جعلني مبلغ الستمائة فرنك الذي كنت أتقاضاه شهريًا لدى (باركرز)، أدرك أن لا أحد يدفع مجانًا، ألن تكون (جنفييف بورو) هذه متطلبة كالمديرين في (باركرز) ؟

- عليك أن تقبلي. فجنفييف تمنحك بهذا برهان ثقة.

عـندها وضـعت المظروف في جيبي وشعرت بارتياح. لو كـانوا يريدون التكفّل بي فلا مشكلة.. كنت وحيدة جدًا خلال هذه الأشهر الأخيرة في باريس، وفي لندن قبل رحيل (رونيه).

ثم إن فكرة الطباعة على الآلة الكاتبة لتلك السيدة التي تدعى (جنفييف) بدت لي أقل مشقة من عملي لدى (باركرز).

- أحضـرت أيضًـا لـك كـتابًا للدكتور (بود).. أتقرأين الإنجليزية ؟

- نعم.

ناولني كتابًا مجلدًا قرأت على غلافه : ف. بود، " في التفتيش عـن الـنور والظل ". على ظهر الكتاب، صورة رجل أربعيني، أسمر ذو نظرة صافية، كما تخيّلته.

- قرائـته أسـهل بكثير من النصّين اللذين وصلا إليك حتى الآن. كـان عليّ أن أعطيك هذا الكتاب أولاً.. يحكي فيه الدكتور (بود) مشواره كما عاشه ببساطة.

كان يبتسم لي. ولأول مرة، منذ وصولي إلى باريس، شعرت بالارتـياح. كـان يكفي أن أستسلم و أسبح على ظهري. أن أقول لنفسـي أنني عثرت على أشخاص يريدون لي كل الخير وأستطيع الوثـوق بهـم. سوف يرشدونني. لن أعد وحيدة أموت من القلق وأتـردد عـند مفـترقات الطرق. سيخففون عنّي. سيدلونني على الطـريق. هـذا هو ما كنت أحتاج إليه. مرشدين. إقترح عليّ أن أسـير معه حتى منزله. فاليوم لن يستقل الحافلة لإلقاء محاضرته في الفلسفة. لكن لا يزال عليه أن يصحح الفروض.

هو يحلّ محلّ أستاذ غائب. قال لي أنها ثانوية غريبة حقًا قد يختفي منها أستاذ بين ليلة وضحاها. وعندها، يأخذ آخرون مكانه فيتشــتتون بيــن تدريــس مــادة الرياضيات لصفّ، والإنجليزية والجغرافيا لآخر. وغالبًا ما يفتقر الأساتذة للشهادات اللازمة لكنهم لــم يكونوا متطلبين في هذه المدرسة. هو أيضًا لم يتسنّ له الوقت لينهي الليسانس. اكتشف تعاليم الدكتور (بود)، وهذا يساوي كل شهادات العالم الجامعية العليا في مادة الفلسفة.

كــان يحدثنــي بنبرة المكاشفة. ربما أصبحت صديقة بالنسبة إليه وندّ، بما أنني سوف أحضر أحد اجتماعاتهم.

- نصــحتني (جنفييف) بأن أتخلّى عن إعطاء المحاضرات في تلك الثانوية وبأن أعمل بدوام كامل للمجموعة.

لكــنه كــان مترددًا إزاء ترك مهنته كأستاذ. كان راتبه جيدًا نوعًــا مــا، ومــن الأحرى أن تتخذ المجموعة شبابًا مثلي على عاتقها.

كــنا نجــتاز بولفــار لوفير بخطى بطيئة وكأننا نتنزه على الشاطيء.

- وأنت ؟ سألني. هل لديك ارتباطات عاطفية ؟

كانت تلك هي المرة الأولى التي يسألني فيها سؤالاً شخصيًا. لكنني لم أكن أميل إلى البوح.

- ليس لديّ ارتباطات عاطفية. قلت له.

- جيد. هذه الإجابة ستعجب الدكتور (بود).

ســـور مستشفى (فوجيرار). أذكر دربًا يعبق برائحة الزيزفون. في السنوات اللاحقة، وحتى هذا اليوم لم تتسنّ لي فرصة المرور ثانية في ذلك الحيّ. إختفت المسالخ. قد يكون مستودع الحيوانات الـــتائهة ومخـــزن الأشياء المفقودة وكنيسة سانت انطوان دوبادو مـــازالوا موجودين. وعندما أفكر في الأمر، يبدو لي أن ذلك هو الحـــيّ الوحـــيد الـــذي كان يمكن لي أن ألتقي فيه بجنفييف بورو والدكتور (بود).

كانـــت البـــناية تحمل رقميّ ٥ و ٧. بناية واضحة، ضيقة، يفصلها عن الشارع سور وراء باحة صغيرة.

دخلـــنا يميـــنًا من باب البناية رقم ٧. تقدّمني (كيروريدان) على السلّم وهو يحتضن بيديه الاثنتين حقيبته البنية.

فتحت لنا (جنفييف بورو) بنفسها. سمراء ترفع شعرها. بدا لي وجهها في البداية حازمًا، بسبب عتمة المدخل. سلكنا رواقًا ثم دخلـــنا يســـارًا إلى غرفة تنيرها مصابيح منخفضة. الستائر كانت مســـدلة. وقـــف رجل عرفت من طوله أنه ذاك الذي كان برفقة (ميشيل كيروريدان) في صورة (ابريل / مايو، روكولنغ).

تجمّد في مكانه للحظة، تقريبًا في نفس وضعيته في الصـــورة عندما كان ممسكًا بكتابه المفتوح. ثم أشار لميشيل بذراعه والتفت نحوي.

- اسمي (جياني).. سعيد جدًا بلقائك..

كان صوته أشد انخفاضًا من صوت (كيروريدان). صافحته دون أن أخـــبره باســـمي. كـــان يـــرتدي بذلة قديمة من المخمل

الـــرمادي. ابتســـمت لي (جنفييف بورو). بدت لي أصغر مما ظننـــتها في المدخل، فتناقضا الآن شعرها المشدود بحزم ونعومة وجهها. عيون خضراء. تلبس فستانًا خفيفًا نبيذي اللون.

لا ترتدي أي مجوهرات أو خواتم، سوى سوار في معصمها.

- حدثنـــي (ميشيل) كثيرًا عنك، وأشكرك على العمل الذي أديتيه لنا.

كانـــت تـــتكلم بصوت صاف، مع لكنة باريسية خفيفة. جلس (ميشـــيل كـــيروريدان) و (جيانـــي) متربعيـــن على السجادة الصوفية.

- تفضــلي بـــالجلوس. قالـــت لي والابتسامة لا تفارق معها مشيرة إلى السجادة. على كل حال، لم تكن هناك مقاعد في الغرفة فـــيما عـــدا أريكـــة ظهرها من الجلد، هناك، بين الستائر المسدلة والمكتب المصنوع من الخشب.

تربعت هي أيضًا، محتفظة بجذعها مستقيمًا جدًا، شكّلنا على تلـــك السجادة دائرة، نحن الأربعة، وكأننا كنا على وشك أن نلعب لعبة لاأعرف قواعدها بعد.

- ســـنقوم بقراءة - قالت جنفييف بورو بصوتها الصافي - شيء بسيط وأساسي للإحتفال بانضمام صديقتنا الجديدة.

فتح (ميشيل كيروريدان) شنطته البنية التي كان قد وضعها بجانبه وأخرج منها بعض الأوراق التي ناولها لجانيي :

- اقرأ أنت. قال له.

بــدأ (جياني) القراءة بصوت هاديء له رنين خاص يصلح لأن يكــون صوت ممثل في المسرح الكلاسيكي. اكتشفت أنه كان مقطعًــا من كتاب الدكتور (بود). يحكي عن حلم رآه عندما كان تقريــبًا في الحادية عشرة من عمره. كان، حتى ذلك الوقت، طفلاً ككل اطفال (لا مبث)، له أهل يشبهون كثيرًا الأهالي الآخرين.

كان ممزوجًا بلون البيوت القرميدي، ولون المخازن الرمادي ومســتنقعات المــياه على الأرصفة. في تلك الليلة، حلم أنه يحلق فــوق الحيّ على ارتفاع منخفض سمح له بأن يتعرف، من أعلى، علــى المــارة، والكلاب، والبنايات التي يسكن فيها زملاؤه، وكل مفــترقات الطرق المألوفة لديه. كان صباح يوم أحد حتى أنه رأى أبــيه يستند بكوعيه إلى النافذة. ومن حوله، أحياء لندن الأخرى، التجمهر اللانهائي للحشود وللسيارات.

أخــذ (جيانــي) يقــرأ أبطأ فأبطأ. يسكت بين الجمل، حتى أصبح إيقاع النصّ أشبه بإيقاع قصيدة شعر. انخفض صوته حتى لــم يعــد غير تمتمة تهدهدني. كانت (جنفييف بورو)، التي بقى جذعهــا بــنفس استقامته، تتأملني بعينيها الخضراويين وتحيطني بابتســامتها الجذابــة. بيــنما تعبث يداها الناعمتان الطويلتان ذات الأظافر المشذبة تمامًا بصوف السجادة.

أبقى (كيروريدان) رأسه منخفضًا وهو معقود اليدين، أنهى (جيانــي) قــراءته وأطبق علينا الصمت، وكأن الإثنين الآخرين يحــاولان الــتقاط صــدى صوت القاريء، ومن خلاله، صوت الدكتور (بود).

- هل هناك ما تعذر عليك فهمه ؟ سألتني (جنفييف بورو).

عكــس صوتها الكثير من الإهتمام بي لدرجة أن هذا السؤال أخجلنـــي أكـــثر. كـــان يجب أن أجد سؤالاً بأي ثمن، انتهيت بأن تمتمت :

- لم أفهم جيدًا " مفتاح أوكتاف ".

اســتدار الآخـــران نحـــوي وجعـــلا يتأملانني بعطف، فتش (كيروريدان) في حقيبته وأخرج النصّ الذي طبعته، ربما ليتأكد مما كان مكتوبًا عن " مفتاح أوكتاف ".

- الأمر بسيط جدًا.. سأشرح لك.

وشـــيئًا فشيئًا، نوّمتني عينا (جنفييف بورو) مغناطيسيًا، لم أعد أسمعها، بل أتأمل حركة شفتيها، أصابعها التي تداعب صوف السجادة بطريقة آلية.

لم أسمع سوى كلمة واحدة لفظتها كثيرًا : " انسجام ". توقفت عن الكلام فأومأت برأسي.

- هـــذا كل مافي الأمر.. الآن أنت تعرفين كل شيء تقريبًا عن مفتاح أوكتاف. قال لي جياني : هل لديك أسئلة أخرى ؟

- أعـــتقد أن هذا يكفي لذلك المساء. قالت (جنفييف بورو)، وقامت بحركة مرنة وغادرت الغرفة.

بقي الإثنين الآخرين متربعين، وأنا، لم أجرؤ على الحركة.

- إذًا. هل أنت سعيدة في اجتماعنا الأول ؟

سألني (كيروريدان).

الآخر كان يتصفّح الأوراق التي طبعتها.

- أنت تطبعين جيدًا جدًا، قال لي. أعتقد أنك ستصبحين سكرتيرة المجموعات.

- بل أكثر من سكرتيرة، قال(كيروريدان).أشعل سيجارة (جولواز). فوجئت بأن التدخين مسموح به خلال الاجتماعات. كنت قد تخيّلت طقوسًا ومراسم احتفالية أكبر.

عادت (جنفييف بورو) إلى الصالون وفي يدها صينية وضعتها على السجادة بيننا. ملأت الأكواب الأربعة إلى المنتصف. شاي بالنعناع، لكن ذو طعم مميز لم أكن أعرفه، وكأنها أضافت إليه شيئًا في السر.

كانوا يشربون على مهل، دون أن يتكلموا. نظرت حولي. إلى يسار المكتب، ملأت أرفف المكتبة زاوية الغرفة كلها. كتب ذات أغلفة قديمة. عند أسفل المكتبة، أريكة مكسوة بالمخمل الرمادي. عكس المصباح المثبت على أحد الأرفف ضوءًا حيويًا جدًا على الأريكة. تخيلت أن (جنفييف بورو) تتمدد هنا للقراءة. وربما هذا ما يفعله الدكتور (بود) أيضًا عندما يأتي إلى باريس.

وقف الجميع. صافح (ميشيل كيروريدان) و (جياني) جنفييف بورو بطريقة مراسمية بعض الشيء، قائلين لها أنهما سيحضران اجتماع مساء الجمعة.

كنت قد تأهبت للمغادرة معهما عندما أشارت لي (جنفييف بورو) بأن أبقى.

ودّعنـــي (ميشــيل كــيروريدان) على أن نلتقي مجددًا يوم الجمعـــة أو ربما قبل ذلك في المقهى وهو يحتضن حقيبته البنية. رافقـــتهما حـــتى بـــاب المدخل. وأنا أنتظر واقفة، لوحدي، وسط الغـــرفة. صـــفق الـــباب. عـــادت (جنفييف بورو) إلى جانبي، محيطتني بابتسامتها وبعينيها الخضراوين.

– اســـترخي يـــا صغيرتي.. تبدين حزينة جدًا.. تمددي على الأريكة.

لـــم أســـمع في حياتي صوتًا مهدئًا لتلك الدرجة. تمددت على الأريكة. وجلست هي خلف المكتب.

– دعي نفسك. أغمضي عينيك..

ســـمعتها تفتح درجًا ثم تغلقه. ثم أطفأت مصباح المكتبة. بهذا أصـــبحنا في شبه عتمة وهي تجلس بجانبي، على الأريكة، تدلك بلطف جبهتي وتحت حاجبي، جفوني وصدغي.

خفـــت أن أغفو فأبوح لها في نومي بما كنت أحتفظ به لنفسي مـــنذ زمـــن طويل : رونيه، الكلب، الصورة الضائعة، المسالخ، صوت حوافر الأحصنة التي توقظك في الفجر.

وهاأنا أجد نفسي متمددة على أريكة، في ٧ شارع دومباسل، لم يكن ذلك صدفة.

إذا كنـــت أريـــد أن أعـــرف المـــزيد عن الحياة، عن النور والظـــلال، كما يقول دكتور (بود)، فمازال عليّ أن أبقى لبعض الوقت في الحيّ.

تمت

باتريك
موديانو

مجهولات

رواية

الغلاف: أحمد اللباد



ميريت